وحيد الدين خان

تجديد علوم الدين

مدخل لتصحيح مسار الفقه والتصوف وعلم الكلام والتعليم الإسلامي

ترجمة
ظفر الإسلام خان

دار الصحوة للنشر

الطبعة الأولى :1406 / 1986

القاهرة

دار الصحوة

هذه ترجمة كتاب "تجديد الدين" الذي نشرته مكتبة الرسالة بدلهي ، الهند ، باللغة الأردية ، سنة 1978

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

يروي جبير بن نفير عن عوف بن مالك الأشجعي أنه قال :

بينما نحن جلوس عند النبي ε ذات يوم إذ نظر إلى السماء فقال :

(هذا أوان يرفع فيه العلم). فقال رجل من الأنصار (وهو زياد بن لبيد) : يرفع عنا يارسول الله وفينا كتاب الله وقد علمناه أبناءنا ونساءنا ؟

فقال رسول الله ε : (إن كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة) وذكر له "ضلالة أهل الكتاب وعندهم ما عندهم من كتاب الله" .. ثم التقى جبير بن نفير بشداد بن أوس فأخبره بهذا الحديث عن عوف بن مالك فقال له شداد : صدق عوف ، ثم قال : (هل تدري ما رفع العلم ؟.. إنه ذهاب أوعيته .. وهل تدري أي العلم يرفع ؟ هو الخشوع حتى لا يرى خاشعا.)[1]

إن الإنحطاط الديني الذي يصيب طائفة أمينة على كتاب الله لا يعني زوال كل مظاهر التمسك بالدين أو عدم اهتمام الناس بالقضايا الدينية ..

---

[1] ابن عبد البر **جامع بيان العلم وفضله**,ج 1, ادارة الطباعة المنيرية, القاهرة, ص 152 - 153.

إن شيئا كهذا لم يحدث في التاريخ . إن الإنحطاط الديني يعني بقاء الدين في مستوى القسوة القلبية وضياعه في مستوى الخشوع[1] . إن دين الخشوع موطنه القلب أما دين القسوة فلا يبرح الأعضاء والجوارح الخارجية فلا يكون جزءا من الشعور حتى يلهب وجدان المرء ويحكم حياته الداخلية والخارجية .

إن هذا الإنحطاط يصيب حملة كتاب الله حين يحولون الدين الإلهي إلى "فن" ، و"الفن" هو تعيين حقيقة ما بلغة الميزان والمكيال ، ربما أن الميزان والمكيال لا يستطيعان تناول الحقائق القلبية والوجدانية الداخلية السامية ، فهما يتناولان جوانب الحقيقة الظاهرية فحسب . وحين تزدهر فنون من هذا النوع في طائفة ما يزدهر بها خبراء بحوث الظاهر وينعدم بها خبراء الوجدان الداخلي .. والعبادة التي هي خشوع القلب ولهفته نحو الخالق تصبح عملا ظاهريا في المكيال الفقهي .. والروحانية التي هي العيش على مستوى استحضار الرب واليوم الآخر ، تصبح دربا يجتازه المرء بالتمارين السلوكية تحت إشراف المرشدين .. والدعوة إلى رسالة الحق التي هي غاية النصح للعباد تظهر في صورة الخطب والمناظرات والحركات الإحتجاجية وحتى في صورة الفوضى والتخريب ..

1 قال الله تعالى:"ألم يأن للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون" (الحديد:16).

وعندما يصل حملة كتاب الله إلى مستوى (القسوة) فلا سبيل لإعادتهم إلى مستوى (الخشوع) إلا بتطهير دين الله من إضافات البشر .. لأن هذه الإضافات هي التي صاغت هذا الفكر الذي أدى إلى ظهور القسوة القلبية . إن التدين الحقيقي ينبع من دين الله ورسوله ، وليس من دين يضعه البشر ..

تجديد الدين

إن تجديد الدين لا يعني إختراع إضافة لدين الله وإنما يعني تطهير الدين الإلهي من الغبار الذي يتراكم عليه ، وتقديمه في صورته الأصلية النقية الناصعة .

إن "الغبار" الذي يتراكم على الدين الإلهي ظل من نوع واحد على مر العصور وهو الإضافة البشرية إلى المتن السماوي . وتأتي هذه الإضافة في بداية الأمر بسبب عوامل وقتية ، ولكنها بمضي الزمن تصبح شيئا مقدسا حتى تعتبر جزءا من الدين الإلهي ، ويؤمن بها الناس إيمانهم بالوحي السماوي ، ويصل بهم الأمر إلى إتخاذ أحبارهم ورهبانهم "أربابا من دون الله" حسب التعبير القرآني (التوبه:31) .

و تأتي هذه الإضافة لسببين إثنين بصفة عامة :

1 – محاولة تعيين حقيقة الدين من الناحية الخارجية .

2 – بيان التعاليم الدينية بالمصطلحات العقلية (العقلنة) .

ونجد مثالا للخطأ الأول في الأبواب الأولى من التوراة (العهد القديم) ، وهي الأبواب المليئة بالتفاصيل الجزئية جدا حول القرابين . ولا علاقة للشريعة الموسوية الحقيقية بهذه الآداب والطرق التي قد وصفها القرآن "بالإصر والأغلال" (الأعراف : 156).

إنها الفقه الذي وضعه علماء اليهود التابعون وضموه إلى الكتاب المقدس . وهكذا فإن "البدعة" التي راجت في المسيحية

باسم "الرهبانية" هي التصوف المسيحي الذي لم يأمر به المسيح عليه السلام . إن هذه الأشياء الإضافية التي ظهرت لتعيين الهيكل الخارجي للعبادة اليهودية أو الروحانية المسيحية ، قد أصبحت جزأ لا يتجزأ من اليهودية والمسيحية بمرور الزمن ، حتى توارى الدين الإلهي الحقيقي عن الأنظار في خضم هذه الإضافات .

أما الخطأ الثاني فنجد له مثالا في العقائد المسيحية الحالية ، كالتثليث والكفارة والإعتقاد بأن المسيح ابن الله ..

إن المسيح لم يعلم هذه العقائد في حياته ، بل هي غير موجودة حتى في أناجيل متى ومرقص ولوقا ويوحنا . لقد إخترع القديس بولس عقيدة "الكفارة" إنها عقيدة ظهرت بين المتكلمين المسيحيين المتأخرين .. فعندما خرجت المسيحية من حدود الشام بدأ العلماء المسيحيون يبينون التعاليم المسيحية باللغة التي تفهمها الشعوب الأخرى ، كالمصريين واليونانيين وهذا هو ما يطلق عليه القرآن تعبير "المضاهاة"[1] . وأخذت أحاديث وبيانات العلماء المسيحيين تتقمص مسموح القدسية رويدا رويدا إلى أن حصلوا على التأييد السياسي في عهد قسطنطين الأول فبدأوا ينفذون بالقوة هذه المسيحية المستحدثة بدلا من المسيحية الحقيقية وذلك بواسطة مجلس نيقيا الأول سنة 325م .

---

1 "يضاهئون قول الذين كفروا من قبل" . (التوبه 30)

إن ما يطلق عليه "العقائد المسيحية" هو علم الكلام المسيحي الذي تحول إلى جزء من المسيحية إلى أن أصبح هو الأصل على مر الزمن .

إن الإسلام يعاني اليوم من سائر أنواع "الغبار" الذي تراكم على أديان الأمم السابقة ، مع فارق جوهري وهو أن أصول الدين الإسلامي محفوظة من التحريف البشري دون سائر الديانات السماوية الأخرى . ولن ينجح الجهد الرامي إلى إحياء الدين الإلهي ما لم يطهر من الغبار البشري.

وكان رسول الله ε قد حذر أمته تحذيرا صريحا بشتى الطرق للوقاية من هذه الفتنة . فكانت آخر نصائحه لنا قبل رحيله إلى الرفيق الأعلى : "تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنة رسوله"[1] ، ولكن حسبما كان الرسول قد تنبأ بنفسه بدأت الإضافات تتراكم على ميراث النبوة في العصور المتأخرة ، حتى ألحقت بالإسلام في تصورات الناس الساذجة كل تلك الأشياء التي حرفت الأديان السابقة .

ولكن هناك فارق نوعي عظيم بين المثالين ، فبينما أصبحت الإضافات البشريه جزء لا يتجزأ من النصوص السماوية القديمة حتى إن تمييز الجزء السماوي من الإضافة البشرية بات أمرا مستحيلا ،

---

1 موطأ الإمام مالك ، كتاب الجامع ، باب النهي عن القول بالقدر ، الحديث 1619 ، طبعة دار النفائس ، بيروت 1971 ، ص 648.

فإن الإسلام بالرغم من كل الإضافات ، يحافظ على النص السماوي المتمثل في "القرآن" الذي لم يطرأ عليه تحريفا ما منذ نزوله إلى اليوم . ويمكن لكل شخص اليوم أن يتعرف على الدين الإلهي الحقيقي الخالي من الإضافات البشرية ، وذلك بأن يطلع على القرآن .

وسندرس في هذا البحث ثلاثة مداخل رئيسة تسرب الفساد عن طريقها إلى ديننا الحنيف وهي : الفقه والتصوف وعلم الكلام . ولا حاجة بنا للتأكيد على أن هذه الفنون الثلاثة نتاج العصور المتأخرة وكانت مجهولة لصحابة الرسول الكريم ε .

1-الفقه

إن الفساد الأول دخل عن طريق (الفقه)[1] . وقد كتب الإمام ولي الله الدهلوي يقول في هذا الصدد :

"إعلم أن رسول الله ع لم يكن الفقه في زمانه الشريف مدونا ، ولم يكن البحث في الأحكام يومئذ مثل البحث من هؤلاء الفقهاء حيث يبينون بأقصى جهدهم الأركان والشروط والآداب لكل شيء ممتازا عن الآخر بدليله ويفرضون الصور ويتكلمون على تلك الصور المفروضة ، ويحدون ما يقبل الحد ويحصرون ما يقبل الحصر ، إلى غير ذلك من صنائعهم . أما رسول الله ع فكان يتوضأ فيرى الصحابة وضوءه فيأخذون به من غير أن يبين أن هذا ركن وذلك أدب . وكان يصلي فيرون صلاته فيصلون كما رأوه يصلي ، وحج فرمق الناس حجه ففعلوا كما فعل . فهذا كان غالب حاله ع ، ولم يبين أن فروض الوضوء ستة أو أربعة ولم يفرض أنه يحتمل أن يتوضأ إنسان بغير مولاة حتى يحكم عليه بالصحة أو الفساد إلا ما شاء الله، وقلما كانوا يسألونه عن هذه الأشياء . عن إبن عباس رضي الله عنه قال :

1 الفقه المراد به في هذه الفقره هو فقه العبادات لا غير.

"ما رأيت قوما كانوا خيرا من أصحاب رسول الله ع ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض"[1] .

إن القرآن والحديث لم يتناولا كلمة (الفقه) بالمفهوم الإصطلاحي الرائج اليوم . لقد بدأ تدوين (الفقه) كفن[2] ، عقب القرن الأول عندما تشعبت القضايا التي كان المجتمع الإسلامي العريض يواجهها حين ذاك . فقد كانت رقعة الإسلام تتسع بصورة مستمرة حتى امتدت من حدود الصين إلى تخوم فرنسا ، ودخل عدد لا يحصى من الناس من كل الأجناس إلى الإسلام فبرزت أسئلة وقضايا جديدة ، و كان العراق هو المركز الأول للرد على هذه الأسئلة المثارة . واتخذ فقهاء العراق من القياس والإستخراج وسيلة للرد على الأسئلة الجديدة . ولم تكن الأحاديث قد دونت بعد بصورة نهائية ، ولم يكن أحد من الفقهاء يتمتع بمجاميع الأحاديث مثلما نتمتع به نحن في مكتباتنا الآن . وهذا هو السبب في أن الفقهاء الأوائل كانوا كثيرا ما يتراجعون عن آرائهم ، فنجد الكتب الفقهية مليئة بعبارات مثل :

- "هذا رأي أبي حنيفة الأول وأنه رجع عنه" .
- "هذا مذهب الشافعي القديم وهو في العراق وهذا مذهبه الجديد في مصر" .
- "وهذه إحدى الروايات عن مالك ((أو عن أحمد بن حنبل)) ، وهناك روايات أخرى..." .

---

1 **حجة الله البالغه** ، ج 1 ، باب أسباب إختلاف الصحابه و التابعين في الفروع.

2 (الفن) هنا بمعنى فرع علمي و تقني تطبيقي يمتاز بمصطلحاته و تعابيره الخاصه – المترجم .

- إن حركة تدوين الحديث التي بدأت بصورة واضحة في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري كانت إلى حد كبير رد فعل رجال الحديث على فقهاء العراق . إن حركة تدوين الحديث كانت تقوم على اعتقاد رجال الحديث بأنه يجب أن تستند المسائل إلى الأحاديث والآثار بدلا من الاستناد إلى الرأي والقياس . ولذلك فإن مجموعات الأحاديث التي دونت في بداية هذه الحركة هي الكتب التي تحوي الأحاديث حول الأحكام الفقهية كموطأ الإمام مالك . أما مجموعات المتأخرين فقد حوت كل أنواع الأحاديث إلا أنها قد رتبت – أيضا – على غرار الترتيب الفقهي . وكان لهذا المناخ أثره على الإمام البخاري حين أعد خريطة للأبواب الضرورية قبل أن يدون مجموعته ، ولذلك فإنك قد تجد عديدا من الأحاديث تحت باب ما من أبواب صحيح البخاري ، ولا تجد تحت بعض الأبواب سوى آية قرآنية ، بينما تخلوا بعض الأبواب الأخرى من أي حديث أو آية ! أما فيما يتعلق بالفقه الفني فكان لا يزال ناقصا بالرغم من تدوين الأحاديث . لقد كانت طرق العبادة واحدة ومتشابهة لدى صحابة الرسول ، لكن الأحاديث دلت على أن هناك بعض الفوارق في الجوانب الهامشية من سلوك بعض الصحابة . فبرز السؤال : ما العمل وكيف يمكن تعيين هيكل عبادة ما ؟ وانقسم الناس إلى فريقين : المحدثين

والفقهاء فقال (المحدثون) : يمكن العمل بسلوك أو رأي أي صحابي عملاً بالمبدأ القائل : "الصحابة كلهم عدول" . يقول أسامة بن زيد : إنني سألت القاسم بن محمد بن أبي بكر عن رأيه في قرأة القرآن خلف الإمام في صلاة غير جهرية فقال : "إن قرأت فلك في رجال من أصحاب رسول الله ε أسوة ، وإذا لم تقرأ فلك في رجال من أصحاب رسول الله ε أسوة"[1] . وقد قال عمر بن عبد العزيز "إن أصحاب رسول الله ε لم يختلفوا لأنه لو كانوا قولا واحداً كان الناس في ضيق . وإنهم أئمة يقتدى بهم ، فلو أخذ رجل بقول أحدهم كان في سعة"[2] .

ويذكر محمد بن عبد الرحمن الصيرفي أنه سأل أحمد بن حنبل : "إذا اختلف أصحاب رسول الله ε في مسألة ، هل يجوز لنا أن ننظر في أقوالهم لنعلم مع من الصواب منهم فنتبعه ؟" فرد عليه ابن حنبل رحمه الله قائلا : "لا يجوز النظر بين أصحاب رسول الله ε ... تقلد أيهم أحببت"[3] .

---

1 **جامع بيان العلم و فضله** ، ج2 ص 80.

2 **نفس المصدر والصفحة.**

3 **نفس المصدر ص 83.**

إن إختلاف العلماء حول مسالك المحدثين الفقهية يعزى إلى هذا المنهج الفكري ، فالحقيقة أن المحدثين لم يكونوا يسلكون ويتبعون مسلكا فقهيا بالمعنى المعهود لدينا الآن .

أما الفقهاء – أو من أطلق عليهم وصف ((جماعة أهل النظر)) – فكان رأيهم يختلف عن رأي المحدثين ... يقول أبو عمر : إن الأئمة مالكا و الشافعي والليث بن سعد والأوزاعي وأبا ثور وآخرين من الفقهاء كانوا يقولون عن إختلاف الأقوال والأعمال المنسوبة إلى الصحابة الكرام : "إن الإختلاف إذا تدافع فهو خطأ وصواب"[1] . وقال الإمام مالك : "مخطئ و مصيب ، فعليك بالإجتهاد"[2] ... "ما الحق إلا واحدا !! ، قولان مختلفان يكونا صوابين جميعا !! ، ما الحق والصواب إلا واحد"[3] . ولهذا السبب دعا الفقهاء إلى النظر والقياس في ضوء الكتاب والسنة والإجماع والأصول المسلم بها لترجيح أحد القولين على الآخر .

إنه لا شك في أن رجال الحديث كانوا على الحق في هذا الجدل .. صحيح أنه ينبغي ترجيح قول على آخر في بعض الأحايين والأمور ، فالإختلاف دائما لا يكون من نوعية واحدة . وقد يتطلب الأمر التمحيص والترجيح . وعلى سبيل المثال فقد روى عن النبي ε أنه

---

1 جامع بيان العلم وفضله ، ج2 ص 80.

2 نفس المصدر صفحة 81.

3 نفس المصدر صفحة 82 .

كان يظن أن بعض الحيوانات (كالفأر و الضبّ) "من القرون التي مسخت" (مسلم) بينما روى كذلك : "أن الله لم يلعن قوما قط فيمسخهم فكان لهم نسل ، ولكن هذا خلق كان" (أبو داود) . إنه من الواضح أن قولا واحدا من بين هذين القولين صحيح ولذلك لا بد لنا من ترجيح رواية على أخرى . وهكذا روي عن الرسول ، ε ، قوله عن أولاد المشركين : "هم مع آبائهم" (ابن كثير) بينما روى عنه ε كذلك قوله "المولود في الجنة" (أحمد) كما ردّ الرسول عن سؤال عن أولاد المشركين قائلا : "هم خدم أهل الجنة" (الطبراني). إنه من الطبيعي أن طفلا ما لن يكون في الجنة والجحيم في آن واحد ، ولذلك ينبغي علينا أن نمحص الرويات من هذا النوع ونحاول التوصل للحديث الصحيح .

أما فيما يتعلق بالإختلاف في طرق العبادة فلا يعدو أن يكون هامشيا وفرعيا للغاية ، بل هو يتعلق بجانب لا يستدعي بالضرورة كون أحد القولين صحيحا والآخر باطلا . إن الإختلاف أو الفارق يدل هنا على مدى التنوع والتوسع وليس على الصحة والبطلان . ولذلك نجد أن صحابيا واحدا يقوم بعمل ما بإسلوبين مختلفين في حياته . فعلى سبيل المثال نجد الإمامين مالكا والشافعي يرويان عن عروة أن عمر بن الخطاب ، وهو يخطب الجمعه ذات مرة قرأ آية سجدة فنزل عن المنبر وسجد فسجد الناس معه ، وفي خطبة الجمعة التالية قرأ آية سجدة ولم ينزل ليسجد فهمّ الناس أن يسجدوا

ولكنه نهاهم عن ذلك[1] . ويروى كذلك أن عمر بن الخطاب دخل المسجد فصلى ركعتين نافلتين ، وفي اليوم التالي صلى ركعة واحدة فقط فقالوا له : إنك صليت ركعة واحدة فقط ، فرد عليهم قائلا : "إنها صلاة نافلة من شاء أنقص ومن شاء زاد"[2] .

ويروى عن عمر الفاروق أيضاً ، أنه لم يكن يقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) بالجهر في الصلاة ، ولكن روي كذلك أنه قرأها بالجهر في بعض الأحايين[3] . وكان عبدالله بن عباس رضي الله عنه ، يعرف أن الرسول أمر الناس في بعض أيام المطر "ألا صلّوا في الرحال" ولكن يروى عن ابن عباس نفسه أنه "قال لمؤذنه في يوم مطير ، يوم جمعة : إذا قلت (أشهد أن محمدا رسول الله) فلا تقل (حي على الصلاة) ، قل (صلوا في بيوتكم) . فاستنكر الناس ذلك ، فقال فعلها من هو خير مني (يقصد رسول الله ε) وإني كرهت أن أخرجكم في الطين والدحض" .

إن دراسة حياة النبي وصحابته تدل على أن العبادة ، وإن كانت عملا مقررا فيما يتعلق بهيكلها الأساسي ، إلا أن جزئياتها لم تكن تكرارا رتيبا مثلما نشاهده في المسالك الفقهية المدونة اليوم . إنه لا شك في أن للعبادة صورها المعينة ولا يمكن أداؤها إلا في إطار هذه الصور والأشكال المقررة . ولكن لأسباب مختلفة كانت

---

1 الإمام ولي الله الدهلوي ، **إزالة الخفاء ،** المقصد الثاني ص 169.

2 الإمام ولي الله الدهلوي ، **إزالة الخفاء ،** القصد الثاني ص 178 .

3 الإمام ولي الله الدهلوي ، **إزالة الخفاء ،** القصد الثاني ص 162 .

التغييرات الطفيفة والجزئية تطرأ على هذه الأشكال ، الأمر الذي لا يسمح به دعاة المسالك الفقهية اليوم .

إن بعض التغيرات والفوارق قد حدثت لأسباب عرضية طارئة ، كالرمل في طواف الكعبة ، الذي اعتبره الفقهاء المتأخرون سنّةً ، ولكن عبد الله بن عباس يقول : "إنما فعله النبي ε على سبيل الاتفاق لعارض عرضه ، وهو قول المشركين (حطّمهم حمى يثرب) وليس بسنّة".

وبعض المتغيرات قد تطرأ بسبب الاستغراق في كيفية العبادة . ومن أمثلة ذلك ما رواه الترمذي وأبو داود والنسائي أن رفاعة بن رافع رضي الله عنه عطس ، وهو يصلي خلف النبي ε ، فقال بالجهر "الحمد لله حمداً كثيراً طيبا مباركا عليه كما يحب ربنا و يرضى" . وبعد انتهاء الصلاة سأل النبي : "من المتكلم في الصلاة" فلم يرّد أحد ، وعندما كرر النبي سؤاله ثلاث مرات ، قال رفاعة : "أنا يا رسول الله" فقال رسول الله : "والذي نفسي بيده لقد إبتدرها بضعة وثلاثون ملكا يصعد بها"[1] .

وبعض الفوارق قد تحدث لأن الأهمية في الإسلام لحقيقة العبادة وليس لأشكالها المجردة ، ولذلك تجاهل الرسول عن بعض

---

1 **مشكاة المصابيح** ، باب ما لا يجوز في الصلاة و ما يباح.

الفوارق البسيطة التي تحدث خلال أداء العبادة وأكد على الحقيقة الأساسية للعبادة .

يروي أسامه بن شريك : "خرجت مع رسول الله ε حاجًّا

فكان الناس يأتونه فمن قائل : يا رسول الله سعيت قبل أن أطوف أو أخرت شيئاً أو قدمت شيئاً، فكان يقول : لا حرج إلا على مسلم اقترض عرض مسلم وهو ظالم فذلك الذي حرج وهلك"[1] .

إن القرآن يؤكد كثيرا على أهمية الصلاة ولكنه لا يحدد شكلا معينا لها ، ونحن نعرف الشكل المعين للصلاة من السنة النبوية ، التي تدلّنا ، مع تحديدها لأسس الصلاة ، على أن هناك تنوعاً وتوسعاً في الجزئيات . وهذا التنوع ليس "نقصا" في الصلاة حتى نخترع فنًّا لإصلاحه وتلافيه . إن هذا التنوع دليل على أن الصلاة عمل حي . والعمل الحي لا يخضع للرتابة الآلية . وقد حاول الفقه ، بدون لزوم أن يقضي على التنوع والتوسع الطبيعي ليحل محله نظاما رتيبا للعبادة . إن هذا التدبير الاصطناعي حرم المصلين من فوائد الصلاة الحقيقية ومتعتها ، فأخذوا يظنون أن الصلاة شئ إضافي كالرياضة ، وليست هي المنبع الإلهي المقرر لتزويد الحياة بالحرارة والديناميكية التي لابد أن تتحلى بها حياة المسلم .

وإن كان الترجيح وإيجاد الرتابة في فروع العبادات مطلوبا حقا ، فلم يكن السبيل الذي سلكه الفقهاء هو السبيل الصحيح .

---

1 **سنن أبي داود** ، كتاب المناسك ، باب فيمن قدم شيئاً قبل شئ من حجّه . (و إقتراض العرض يعني النيل منه بالطعن فيه)

فالذي فعلوه هو أن أقام كل فقيه مدرسة خاصة به وعكف على البحث والترجيح بجهود ذاتية شخصية . وبما أن التنوع كان موجود بالفعل في العبادات ، فلم يكن ممكنا لطبائع وعقول مختلفة أن تصل ببحوثها إلى نتيجة واحدة بشأن ترجيح شئ على آخر . فحين رجّح فقيه ما شيئا معينا جاء فقيه آخر ليرجِّح الرأي الآخر المضاد . وهكذا برزت هياكل وصور متعددة للعبادات بينما كان الهدف هو وضع هيكل واحد فقط .

يقول المسيب بن رافع التابعي أن العادة التي جرى عليها الناس (قبل نشوء الفقهاء التقليديين) أنهم كانو يطلقون اسم "صوافي الأمراء" على أية قضية لا يجدون لها حكما صريحا في القرآن والسنّة ، فكانوا يرفعون الأمر إلى الحكام الذين كانوا بدورهم يجمعون العلماء ، فيحكمون بما أجمع عليه العلماء[1] .

إنه أسلوب لا يمكن لأحد أن يشذ عنه أو يختلف بشأنه ، ثم أن هيبة الدولة تضمن القضاء على الإختلاف . وهذا هو الأسلوب الذي اتبع في صدر الإسلام الأول لتدوين القرآن الكريم . ولو لم يتم هذا العمل تحت إشراف الدولة ، ولو عكف كتبة متعددون على تدوين القرآن باجتهاداتهم الشخصية ، لتعرضت الأمة لخلافات عظيمة ما كانت لتحل حتى قيام الساعة . وهكذا لو كان ترتيب القضايا الفقهية أمرا مطلوبا فكان ينبغي أن يتم تحت إشراف الدولة الإسلامية من خلال إدارة أو هيئة للعلماء .

---

1 **جامع بيان العلم** ، جـ 2 ، ص 144 .

ومن أمثلة ذلك أنه عندما ثار الخلاف بين الصحابة حول عدد تكبيرات صلاة الجنازة جمعهم عمر الفاروق على أربعة تكبيرات[1] . وكان عبد الله بن المقفع قد أشار على الخليفة العباسي المنصور أن يدون قانونا متفقا عليه ويصدره باسم الدولة .

وكان الفقه يهدف في بداية عهده إلى البحث عن الترجيح بين مختلف الروايات والأقوال . ولكن الظروف المتغيرة كانت تثير أسئلة وقضايا جديدة فبدأ الفقهاء يستخرجون أحكاما جديدة بناء على الأحكام المعروفة السابقة . وهكذا بدأ عهد جديد في تاريخ الفقه : عهد **التخريج** بعد عهد **الترجيح .** يقول الإمام ولي الله الدهلوى عن هذا التطور : "..فلما مهدوا الفقه على هذه القواعد فلم تكن مسألة من المسائل التي تكلم فيها من قبلهم والتي وقعت في زمانهم إلا وجدوا فيها حديثا . ثم أنشأ الله تعالى قرنا آخر ... فوقع تدوين الحديث والفقه والمسائل من حاجتهم بموقع من وجه آخر وذلك أنه لم يكن عندهم من الأحاديث والآثار ما يقدرون به على إستنباط الفقه على الأصول التي إختارها أهل الحديث ، فمهدوا الفقه على قاعدة التخريج"[2] .

إن الاعتماد على أسلوب (التخريج) في تدوين الشئون القانونية والمعاملات كان صحيحا لأن الأسئلة والقضايا المستجدة تثور باستمرار في المعاملات والقوانين ولا مناص من اللجوء إلى

---

1 **جامع بيان العلم** ، جـ 2 ص 85.

2 **حجة الله البالغة** ، ج1 ، ص 348 – 353

القياس والاجتهاد لحلها . أما توسيع قاعدة التخريج حتى شملت العبادات فكان خطأ اجتهاديا أحال العبادات إلى "فن" .. وكانت استحداثات مسائل فقهية جديدة أن أصبح الدين فنا معقدا لا يعرفه أو يجيده إلا خبير الفقه ، بينما كان الرسول قد أخبرنا أن الدين الذي جاء به سهل ميسور "بعثت بالحنيفية السمحة" . وعكف الفقهاء على التفريعات في مسائل العبادة تماما كما يحدث للفنون من تفريعات وتحديث ... "ومنها أن أقبل أكثرهم على التعمقات في كل فن ..... ومنهم من كثر القيل والقال في أصول الفقه، فاستقصى وأجاب، وتقصّى وعرّف وقسّم"[1] .

وقد أدى هذا النهج إلى الخوض في مسائل تعبدية لم تكن معهودة في زمن الصحابة .. حين وصل الإمام الشافعي إلى الكوفة لأول مرة ، لم يستسغ في المسجد صلاة أحد الشبان ، فقال له : "أحسن الصلاة حتى لا يعذب الله وجهك الجميل في النار" ، فرد عليه الشاب قائلا إنني أصلي في هذا المسجد منذ خمس عشرة سنة أمام محمد بن حسن وأبي يوسف ، ولكنهما لم يقولا شيئا وأنت تعيب على صلاتي . وكان الإمامان متواجدين في ذلك الوقت خارج المسجد ، فتوجه الشاب إليهما وسألهما : هل رأيتما فسادا في صلاتي ، فأجاباه قائلين : لا والله ! فأخبرهما الشاب أن شخصا بالمسجد قد اعترض على صلاته . فقالا له : اذهب إليه واسأله : كيف تدخل في الصلاة فعاد الشاب إلى الإمام الشافعي وسأله : "يا

1 **حجة الله البالغة** ، ج1 ، ص 259

من عاب علي صلاتي بمَ تدخل في الصلاة؟" ، فأجابه الشافعي "بفرضين وسنة" . ورجع الشاب وأخبر الإمامين برد الشافعي فقالا : "إنه رد شخص له باع في العلم" ، ثم أرسلا الشاب يسأل الشافعي مرة أخرى : "ما الفرضان وما السنة" فأجاب الشافعي : "إن الفرض الأول هو النية والآخر هو تكبيرة التحريم ، أما السنة فهي رفع اليدين"[1] .

إنه لو كان الأمر يتعلق بصحابيين من صحابة الرسول ع لما دار النقاش بهذا الأسلوب من الأسئلة والأجوبة .

يروي الفضل بن موسى أن المحدث المشهور الأعمش (-147هـ) مرض ذات مرة فذهب أبو حنيفة لعيادته ومعه الفضل بن موسى . وقال أبو حنيفة للأعمش : "يا أبا محمد لولا التثقيل عليك لزدت في عيادتك" ، فقال الأعمش : "والله إنك عليّ لثقيل وأنت في بيتك فكيف إذا دخلت عليّ" . وعقب الخروج قال أبو حنيفة للفضل : "إن الأعمش لم يصم رمضان قط ولم يغتسل من جنابة" (وكان الأعمش يرى الماء من الماء ويتسحر على حديث حذيفة)[2] .

وقال أبو حنيفة هذا الكلام الخطير لمجرد أن الأعمش كان يخالفه الرأي في مسألتي تناول السحور والإغتسال . إنه لمن المستبعد أن نتوقع من صحابي أن يصدر أحكاما من هذا النوع لمجرد الخلاف

1 **رحلة الإمام الشافعي** ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، 1350 هـ ، ص 13 – 14.

2 إبن عبد البر ، **جامع بيان العلم و فضله ، ج 2 ، ص 157 .**

في مسائل فرعية – وهذا مع إجلالنا الكامل وثقتنا في شخصية أبي حنيفة – !!

وقد ترتب على الانغماس في هذا النوع من المباحث والمسائل أن ظهر إلى الوجود فن كان يجهله أصحاب الرسول ε ، فلم يكن أحد منهم يدري أن "الوضوء يشمل أربعا من الفرائض و 13 من السنن و 8 من المستحبات" .. إن المعايير الفنية التي اختلقها الفقه لعلم الدين قد أدت في بعض الأحايين إلى ظهور أشياء غريبة جدا . ومن نموذج هذه الأشياء قول أبي حنيفة للإمام الأوزاعي (م: 157هـ) : "لولا فضل الصحبة (يقصد صحبة النبي) لقلت أن علقم أفقه من عبد الله بن عمر"[1] .... ما كان مثل هذا الخاطر ليجول في عقل أبي حنيفة لولا ظنَّه أن عبد الله بن عمر متخلف عن علقمة في الفن الذي راج في عصر أبي حنيفة باسم "الفقه" .. وهذه العقلية قد ظهرت في بعض الأحيان على شكل أكثر جرأة ، فعلى سبيل المثال كان (الضحاك) يكره "المسك" فقيل له أن أصحاب النبي ε كانوا يتطيبون بالمسك فردّ الضحاك قائلا : "نحن أعلم منهم"[2] ..

---

2 حجة الله البالغة ، ص 327 .

2 جامع بيان العلم و فضله ، ج 2 ، ص 100 .

لقد كان الصحابة يتحاشون الرد على الأسئلة وكانوا يثبطون الأسئلة الجديدة[1].. أما حين ازدهر فن الفقه ظهر أناس يختلقون أسئلة فرعية ويجهدون أنفسهم للحصول على الردود عليها ، وعلى سبيل المثال : "سئل الإمام خجندي رحمه الله عن رجل شافعي المذهب ترك الصلاة سنة أو سنتين ثم انتقل إلى مذهب أبي حنيفة : كيف يجب عليه القضاء ، أيقضيها على مذهب الشافعي أو على مذهب أبي حنيفة"[2] . إن هذه الأشياء كانت منعدمة ومجهولة في عهد الصحابة الكرام ، ولو أن سؤالا كالسؤال الآنف الذكر ، طرح على أحد من الصحابة للعن السائل ووبخه قائلا : هل تريد أن تحول دين محمد إلى اليهودية ! ولكن وصل الأمر في القرون المتأخرة إلى تجرؤ الناس على الإكثار من هذه الأسئلة ورد الفقهاء عليها بكل افتخار لأنهم جعلوا من الفقه "أعظم علم" من علوم الإسلام.. ويقول الإمام ولي الله الدهلوي عن هذه الظاهرة التي أصابت المسلمين منذ ظهور الفقهاء : "وكان بعدهم قوم لا يكرهون المسائل ولا يهابون الفتيا ويقولون : على الفقه بناء الدين فلابد من إشاعته"[3] .

وبظهور هذه الأشياء برز خلاف شديد بين رجال الحديث (المحدثين) وأصحاب الرأي والقياس (الفقهاء) .

---

1 و من أمثلة ذلك رواية خارجة بن زيذ بن ثابت : ((كان زيد إذا سئل عن شئ قال : هل وقع ؟ فإن قالوا له : لم يقع ، لم يخبرهم. و إن قالوا : قد وقع ، أخبرهم)) .. و عن مسروق قال : ((كنت أمشي مع أبي بن كعب فقال له رجل يا عماه كذا و كذلك .. فقال يا بن أخي أكان هذا؟ قال : لا ، قال فاعفنا حتى يكون)) . (**أعلام الموقعين** ، ج 1 ، ص 61).

2 **حجة الله البالغة ، ص 378.**

3 **حجة الله البالغة** ، ص 352.

وراجت بين المحدثين رواية أبي هريرة عن الرسول ε أنه قال :

"تعمل هذه الأمة برهة بكتاب الله وبرهة بسنة رسول الله ε ثم يعملون بالرأي فإذا فعلوا ذلك فقد ضلوا" (رواه أبو يعلي في مسنده)[1] . وقال القاسم بن محمد بن أبي بكر محتجا على سلوك الفقهاء : "إنكم تسألون عن أشياء ما كنا نسأل عنها وتنقرون عن أشياء ما كنا ننقر عنها"[2] .

وبسبب الخوض الفقهي والتنقير ابتدع الفقهاء أحكاما ومسائل في العبادات كان يجهلها صحابة الرسول الكرام ... وتوسعوا في فقه العبادات على حساب فقه المعاملات ، فانزعج أهل العلم .. فيروى أن الإمام الأوزاعي (- 157 هـ) قال لبقية بن الوليد : "العلم ما جاء عن أصحاب محمد ، وما لم يجئ عن واحد منهم فليس بعلم"[3] . وقال سعيد بن جبير التابعي : "ما لم يعرفه البدريون فليس من الدين"[4] .

وقال أحد الشعراء في قصيدة طويلة :

قد نقر الناس حتى أحدثوا بدعا

في الدين ، بالرأي ، لم تبعث بها الرسل [5]

---

1 جامع بيان العلم و فضله ، ج 2 ، ص 134.

2 حجة الله البالغة ، ص 317 .

3 جامع بيان العلم و فضله ، ج 2 ، ص 29 .

4 جامع بيان العلم و فضله ، ج 2 ، ص 97 .

5 جامع بيان العلم و فضله ، ج 2 ، ص 98 .

ويروي عبد الله بن مسلمة القعنبي أنه ذهب ذات مرة إلى الإمام مالك فوجده يبكي فسلم عليه فرد عليه مالك ثم سكت عنه يبكي ، فسأله عبد الله : ما الذي يبكيك ؟ فقال له الإمام مالك : "يا بن قعنب أنا أبكي لله على ما فرط مني ، ليتني جلدت بكل كلمة تكلمت بها في هذا الأمر بسوط ، ولم يكن فرط مني ما فرط من هذا الرأي و هذه المسائل..."[1] .

ويقول الإمام مالك : " لم يكن من أمر الناس ولا من مضى من سلفنا ، ولا أدركت أحدا أقتدي به يقول في شئ : هذا حلال وهذا حرام ، ما كانوا يجترئون على ذلك ، و إنما كانو يقولون نكره هذا ونرى هذا حسنا ، ونتقي هذا ولا نرى هذا..."[2] .

ويروي عبد الله بن مسلمه القرشي أنه سمع الإمام مالكا يقول : "مازال هذا الأمر معتدلا حتى نشأ أبو حنيفة فأخذ فيهم بالقياس فما أفلح ولا أنجح"[3] .

وروى خالد عن بن نزار عن الإمام مالك أنه قال : "لو خرج أبو حنيفة على هذه الأمة بالسيف كان أيسر عليهم مما ظهر فيهم يعني من القياس والرأي" [4]. وقال ابن عيينة : "لم يزل أمر أهل الكوفة معتدلا حتى نشأ فيهم أبو حنيفة"[5] .

---

1 **جامع بيان العلم و فضله** ، ج 2 ، ص 145

2 **جامع بيان العلم و فضله** ، ج 2 ، ص 146 .

3 **جامع بيان العلم و فضله** ، ج 2 ، ص 147

4 **جامع بيان العلم و فضله** ، ج 2 ، ص 147 (و إن كنا نرى أن الآثار السلبية جاءت من المتعصبين .. و ليست من الأئمة) .

5 **جامع بيان العلم و فضله** ، ج 2 ، ص 147 (ذلك لأن أهل الكوفة حولوا الأمر إلى تعصب و إختلاف) .

وحين تولى الإمام أبو يوسف (ـ 182هـ) القضاء في عهد هارون الرشيد برز عامل مادي لرواج الفقه على مذهب معين . وكانت النتيجة رواج الفقه الحنفي والقضاء به في أرجاء الدولة العباسية المترامية الأطراف . ووصل الأمر بالناس إلى أن بدأوا يدرسون الفقه بصفة خاصة ، للتوصل إلى تقلد الوظائف الحكومية . ومما قاله محمود بن حسن الوراق (م . نحو 225 هـ/840 م) في قصيدة طويلة بهذا الشأن :

ركبـــوا المراكـــب واغتدوا

زمرا إلى باب الخليفـــــــة

وصلوا البكـور إلى الـــرواح

ليبلغوا الرتب الشريفـــــة

حتى إذا ظفـــــــــروا بما

طلبوا في الحال اللطيفـــة

وغدا المولـــــــــي منهم

فرحا بما تحوي الصحيفـــة

وتعسفـوا من تحتـهـــــم

بالظلـــم والسير العنيفـــة

ضـــــــاقت قبـــــور القوم و

اتسعت قصـورهم المنـيفة

من كل ذي أدب و معرفـــة

وآراء حصـــيفـــــــــــــة

متفقة جمع الحديـــــــــث
إلى قياس أبي حنيفـــــــة
فأتاك يصلـــح للقضـــــــاء
بلحية فوق الوطيفـــــــــة
لم يـنـتـفـع بالـعـلـــــــم إذ
شـغـفـتـه دنياه الشغوفــــة
نسـي الإلـــــــــه ولاذ في
الدنيـــا بأسباب ضعيفــــــة [1]

إنه لا شك أن مؤسسي المذاهب الفقهية الأوائل لم يكونوا يشعرون بالعصبية المذهبية التي ظهرت فيما بعد .

والحقيقة هي أن العصبية المذهبية كانت هي النتيجة الحتمية لتقسيم فقه العبادات إلى مذاهب مختلفة . والتاريخ البشري شاهد على حساسية الإنسان إزاء قضايا ما بعد الطبيعة أي القضايا التي لا يمكن تحكيم العقل بشأنها . إن خلافا صغيرا جدا في القضايا العقيدية يكفي لإقامة جدار عال جدا بين طائفتين من البشر .

إن الخلافات في تفسير القوانين أمر عادي لا مفر منه بين علماء القانون كالخلاف في أسلوب القصاص ، فقد ذهب الشافعي استنادا على الآية (60) من سورة (الحج) "ذلك ومن عاقب بمثل ما

---

1 **جامع بيان العلم و فضله** ، ج 1 ، ص 166.

عوقب به ..." ، إلى أن القصاص سيكون على نفس أسلوب الظلم الذي وقع على المظلوم فلو قتل أحد ضحيته غرقا بالمياه فسيقتص منه بقتله غرقا . ولو قتل أحد ضحيته حرقا فسيحرق .. أما الحنفية فلا يقرون هذا الرأي وهم يقولون أن القصاص سيكون على الطريقة المعهودة مهما كان أسلوب القتل أو الظلم . إن مثل هذا الخلاف لا يؤدي إلى التفريق والتحزب ، أما الخلاف البسيط جدا في المسائل التعبدية العقيدية فهو يؤدي إلى بناء مسجد جديد إلى جانب المسجد القديم لمجرد أن اختلف المصلون حول مسألة اصطفاف المصلين قبل الإقامة أو عندما يقال : "قد قامت الصلاة" ! وقد صدق من قال "الخلاف في الدين ينتج من الخصومة أكثر مما ينتجه الخلاف في السياسة" .

إنه ليس من المبالغة أن أقول : إن السبب الواحد الأكبر في الخلاف بين المسلمين هو الخلاف التعبدي الذي دوّن في كتب فقهية مغايرة ومتباينة . إن الخلاف التعبدي في حقيقته كان أمرا هامشيا جدا في البداية ولم يكن له من أهمية تذكر . والشئ الذي بدأ الفقهاء يبحثون عنه في الروايات "المتعارضة" لغرض الترجيح والتفضيل هو أمر ليس من الأهمية بمكان في القضايا التعبدية لأن مثل هذا التعارض لا يدل إلا على الرحب والتنوع في الأشكال الهامشية الإضافية للعبادات ، فهو لا يدل مطلقا على اختلاف وتعارض يتطلب الجهد العلمي للقضاء عليه . وقد أدى هذا الإتجاه إلى خسارة أخرى كبيرة وهي أنه بالرغم من أن الفقهاء الأوائل كانوا

لا يهدفون إلا إلى تقديم هيكل جاهز كامل لتيسير العبادات ، إلا أن المتأخرين ظنوا أن العبادة ليست إلا التكرار الرتيب لعمليات تعبدية معينة تعيينا دقيقا لا أكثر ... وهكذا أصبح "شكل" العبادة وليس "حقيقة" العبادة ، هو هدف الناس ومطلوبهم عمليا ، إن لم يكن عقديا .

إن فقه العبادات على صورته الحالية أعطى المسلمين هديتين ، إحداهما (الجمود) وثانيتهما (الإختلاف) . وقد ظهر "أهل الحديث"[1] للقضاء على هذا الفساد الفقهي ، ولكنهم تسببوا في بروز جماعة أشد وأخطر من أي جماعة فقهية أخرى . والسبب في ذلك أنهم أعادوا الخطأ نفسه الذي إرتكبه الناس من قبلهم .. فهم لم يقبلوا التنوع الموجود في بعض الأمور التعبدية الهامشية مثل قول : "آمين" جهرا أو سرا ، وقراءة الفاتحة خلف الإمام أو عدم قراءتها .. إن هؤلاء ، بدلا من الإعتراف بالتنوع والمرونة في هذه الأمور الهامشية ، بدأوا يجتهدون لترجيح رأي على آخر ، و لإثبات رواية لإبطال رواية أخرى ، وذلك لكي ينشئوا نظامهم التعبدي "الأصح" من أنظمة غيرهم . إن جهدا كهذا لم يكن ليؤدي إلا إلى بروز فرقة جديدة ، وهو الأمر الذي حدث بالفعل... !!

---

1 ((**أهل الحديث**)) طائفة إسلامية في شبه القارة الهندية . و هم ، كالسلفيين في بعض البلاد العربية ، يرفضون التقيد بمذهب من مذاهب الفقه الأربعة المعروفة – **المترجم**

الحــــل

إن الحل الوحيد لإصلاح هذا الوضع هو فصل فقه (العبادات) عن فقه (المعاملات) ، مثلما كان الأمر حتى القرن الثاني الهجري .

إن الاجتهاد والتوسع في فقه **المعاملات** ليس جائزا فحسب بل هو أمر مطلوب جدا . أما فقه **العبادات** فلابد أن يبقى محدودا بجمع وترتيب الأحاديث الصحيحة ، بدون ترجيح أو تخريج . وكلما كانت هنالك أكثر من طريقة واحدة لتأدية عبادة ما أو جزء منها ، فلابد من حصر كل الطرق مع مراجعها دون بذل الجهود لترجيح طريقة على أخرى .. بل دون التدخل !!

لقد أراد هارون الرشيد ذات مرة أن يأمر الناس باتباع المذهب المالكي فلم يأذن له الإمام مالك بل قال للخليفة : "لا تفعل ، فإن أصحاب رسول الله ε إختلفوا في الفروع" .

وإذا كان إختلاف صحابة الرسول في الفروع لم يكن يحول دون تأديتهم العبادات بصورة جماعية ، فكيف نستسيغ أن نستحدث في الدين أمور بحجة "الضرورة" ، تقفل باب التوسع والتنوع الذي أعطاه الله ورسوله لنا ؟ إن هذا العمل منا غير مطلوب لأنه بالرغم من هذه الخلافات والتنوع في الفروع كان الصحابة الكرام بنيانا مرصوصا .. أما حين صيغ نظام معين ومحدود ، بالقضاء على هذه الخلافات والتنوع ، وقع بين الأمة خلاف لم ينته حتى يوم الناس هذا.

والأمر الآخر المطلوب هو تغيير المناهج التي تدرس حاليا بمدارسنا الدينية . إن هذه المؤسسة هي العامل الذي يعمل على إبقاء هذا المنكر في الأمة . إن مدارسنا الدينية على هيئتها الحالية ليست إلا وسيلة لإثبات المذهب الفقهي الخاص بها ، باستخدام القرآن والسنة والقياس ... حين حضر السيد رشيد رضا إلى الهند سنة 1330 هـ ذهب إلى دار العلوم بديوبند .. وهناك في حفل الاستقبال سأل أستاذا بدار العلوم عن أسلوب تدريس الأحاديث فأخبره ذلك الأستاذ أن المحدث يذكر النكات العلمية بعد قراءة الحديث ، ولو ظهر أن الحديث يخالف المذهب الحنفي بادئ الرأي ، فهو يسعى لإثبات مطابقة الحديث للمذهب الحنفي .. فسأل رشيد رضا : هل هذا يحدث مع جميع الأحاديث ؟ فأجابوه بنعم . فاستغرب الرجل هذا الأمر ، وقال : طبقا لرواية الشيخ محمد يوسف بنوري (1908–1977) : "هل الحديث حنفي ؟ وكيف يمكن ذلك ، وهل هذا إلا عصبية ما لها من سلطان"[1] .

وكان الشيخ أنور شاه الكشميري هو أستاذ الحديث بدار العلوم آنذاك ، وحين وصله هذا الخبر جعل منه موضوع الخطبة التي ألقاها في استقبال الزائر و "أثبت" أن جميع الأحاديث تطابق الفقه الحنفي .. إلا أن الشيخ أنور شاه الكشميري (1875–1934) كان قد أدرك في نهاية عمره هذا الخطاء المنهجي في المدارس الدينية .

---

1 الشيخ محمد يوسف البنوري ، **نفحة العبر** ، ص 71 .

وقد روى عنه تلميذه الشيخ المفتي محمد شفيع (1897–1976) في كتابه "وحدة الأمة" أنه قال له : "إن خلاصة جميع جهودنا هي أن نرجح المذهب الحنفي على جميع المذاهب الأخرى . ولكن ما فائدة هذه الجهود كلها ؟ فهذه الجهود لا تعني أكثر من أن مذهبنا صواب محتمل الخطأ ومذهب الآخرين خطأ محتمل الصواب فنحن نستطيع أن نقول بعد كل الجهد والتحقيق ، إن هذا الأمر صحيح بينما الاحتمال قائم أن يكون هذا الأمر خطأ ، أو أن هذا الأمر خطأ مع احتمال أن يكون صحيحا . إن (منكرا ونكيرا) لن يسألانا عما إذا كان رفع اليدين هو الصواب أو أن ترك رفع اليدين هو الحق ، أو أن قول (آمين) بالجهر صواب أو أن قوله بالسر هو الحق ؟ .. إننا قد أضعنا عمرنا وراء شيء لا يجدي نفعا في الدنيا و الآخرة .. أما دعوة الإسلام الصحيحة التي جاء بها الأنبياء فنحن لا ندعوا إليها ، بل نحن مشغولون عنها بالأبحاث الفرعية"[1].

إن مدارسنا الدينية مهما كان المذهب الفقهي الذي تدين به ، إلا أن منصب شيخ الحديث بكل منها محجوز لمثل هذه الفهلوة الفقهية . إن الذي يتخرج في هذه المدارس يحمل شهادة "عالم الدين" بينما هو في حقيقة الأمر "عالم الشقاق" فهو يظن أن غاية علمه الديني تنحصر في إثبات أحقية مذهبه الفقهي إزاء المذاهب الأخرى .. إن أمثال هذا العالم يقيمون المسارح بإثارة قضايا دينية بسيطة وغير هامة ويزجون بالأمة في جدال ونزاع لا ينتهي أبدا .

---

1 المفتي محمد شفيع ، ((**وحدت أمت**)) (بالأردية) ،مكتبة المنبر ، فيصل آباد ، باكستان.

ثم إن هؤلاء بتحويلهم الفوارق الفقهية البسيطة جدا إلى منزلة "أهم المسائل الدينية" يدفعون عامة الناس إلى الظن بأن العبادة ليست سوى الإعادة والتكرار الرتيب بصور وأشكال معينة دون أشكال معينة أخرى[1] .. وما لم يتوقف تخريج هذا النوع من "العلماء" في المدارس الدينية لا يمكن إصلاح حال الأمة .

إن أقل ما يمكن القول عن هذه المدارس أنها حولت (**الأمة الواحدة)** إلى أمة مختلفة على نفسها ، وتنطبق عليها الآية القرآنية :

"من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا ، كل حزب بما لديهم فرحون"[2] .

---

1 أي دون أن يكون لهذه العبادات دورها التربوي في إعداد المسلم ، ودون أن يكون لقلبه و روحه و وجدانه نصيب في هذه العبادات **.** و لا يعني هذا أي تدخل من الإنسان في العبادات بل نأخذها كما وردت دون تعصب لرأي.

2 **الروم : 32 .**

2- التصوف

والفساد الثاني دخل إلى الإسلام عن طريق التصوف . ولعل أول شخص سمي (صوفيا) في الإسلام هو أبوهاشم الصوفي (ـ150 هـ) . ولكن الصوفي آنذاك كان من يغالي في الزهد والعبادة . ولأن الصوفية كانوا ينبذون الملابس الجيدة المريحة ويلبسون ملابس الصوف الخشنة أصبح الناس يطلقون عليهم صفة (الصوفي) .. ثم بدأوا يصوغون قواعد التصوف ومصطلحاته ، إلى أن أصبح التصوف في القرن الثالث الهجري (فنا روحانيا) قائما بذاته في الإسلام . وكانت الفلسفة الإشراقية والرهبانية والفيدانت[1] تحمل مواد غزيرة لهذا الفن الجديد ، وهكذا ظهر إلى الوجود شئ بفعل عناصر أجنبية ، يحمل علامة الإسلام بينما هو في حقيقته دين جديد مواز صيغ داخل الإسلام ليكون ندّا للإسلام .

ومن التصوف ما يسمى (بالباطنية) ، فقد ظهر أناس في القرن الثالث الهجري وخصوصا في إيران ، وقالوا (إن للقرآن ظاهرا وباطنا والمراد باطنه) ، ولهذا سموا بالباطنية . وقد أجمع علماء الأمة على أن هذه جماعة من الزنادقة الذين وضعوا هذه النظرية لإخفاء إباحيتهم وفسقهم ، فكانوا يقولون : (الصوفي لا مذهب له) . وحين قيل لأحد الباطنيين : (ألا تصلي ؟) قال : (أنتم مع أورادكم ونحن مع وارداتنا) .. وهؤلاء يؤمنون بأن (التكليف خاص بالعوام ، ساقط على الخواص) . من هؤلاء أيضا القائلون بالحلول والاتحاد فهم يقولون أن

1 الفيدانت هي إحدى مدارس الفلسفة الهندوسية الستة ، تؤمن بوحدة الوجود (المترجم)

الله يحل في السالك حين يصل إلى آخر منازل سلوكه فلا يبقى بينه وبين الله فارق فيصح له القول : (هو أنا ، وأنا هو) .. ومنها أيضا نظرية (وحدة الوجود) التي قال أبو حسين الحلاج بموجبها : (ما في الجبة إلا الله) فأفتى العلماء بردته فقتل في عهد المقتدر سنة 301 هـ . ومنها كذلك طرق التصوف التي تقول بأن سماع الموسيقى والرقص وسيلة للتوصل إلى الله . ومن هؤلاء أيضا القائلون بأن اللواط وسيلة للتقرب إلى الله ، وهم الذين وضعوا ديثا يقول : "رأيت ربي في صورة شاب أمرد" ... إلا أنني لن أناقش صورة من صور هذا النوع من التصوف والصوفية ، فقد أجمع العلماء على ضلالهم . إنني سوف أقصر مناقشتي على الطريقة الصوفية التي حظيت لدى البعض بقبول عام والتي لا يزال أناس كثيرون يظنون أنها أقرب سبلهم إلى الهداية والنجاة . ولهذه الطريقة الصوفية نوعان :

أحدهما : الإضافه العددية في الطرق التعبدية المسنونة .

وثانيهما : الإضافه النوعية في الطرق التعبدية المسنونة .

وقد قال أبو القاسم جنيد البغدادي (- 297هـ) : "مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة" .

إن هذا النوع من التصوف وحده كان رائجا بين صوفية العصر الأول ، هذا إن كان يصح وصفهم بالصوفية . إن هؤلاء لم يحافظوا على المقادير التي حافظ رسول الله ε في طرق العبادات المسنونة . وعلى سبيل المثال فإن رسول الله ε إلى جانب الصلوات الخمس

، كان يصلي بضع ركعات في آخر الليل (إحدى عشر ركعة عموما) ، أما الصوفية فبدأوا يصلون الليل كله . وكان رسول الله ε إلى جانب صوم رمضان ، يصوم بضعة أيام من كل شهر ، فشرع هؤلاء يصومون صوم الوصال . وكان رسول الله ε يقرأ بعضا من القرآن في أوقات معينة ، أما هؤلاء يقرأون القرآن في معظم الأوقات ، حتى روى الإمام النووي (إن كانت روايته هذه صحيحة) أن بعض الناس كانوا يختمون القرآن ثماني مرات يوميا .. إلخ ...

وكان رسول الله ε قد حظر هذا النوع من الإضافة حظرا صريحا ، فقد روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه : "جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ε يسألون عن عبادة النبي ε ، فلما أخبروا كأنهم تقالّوها (أي اعتبروها قليلة) ، فقالوا : وأين نحن من رسول الله ε ، وقد غفر ما تقدم من ذنبه وما تأخر . فقال أحدهم : أما أنا فأصلي الليل أبدا ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر . وقال آخر : أنا أصوم الدهر فلا أتزوج أبدا . فجاء رسول الله ε فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ ! أما والله لأني لأخشاكم الله وأتقاكم له ،

ولكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني"[1] .

وجاء في رواية أخرى لابن جرير و عبد الرازق و بن المنذر عن أبي قلابة قال :

"أراد ناس من أصحاب النبي ε أن يرفضوا الدنيا ويتركوا النساء

ويترهبوا ، فقام رسول الله ε فغلّظ فيهم المقالة ثم قال : إنما هلك

من كان قبلكم بالتشديد ، شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم . فأولئك بقاياهم في الديار والصوامع . أعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وحجّوا واعتمروا واستقيموا يستقم بكم" .

ويمكنك أن ترى خلاصة المكتبة التي وضعت دفاعا عن هؤلاء "العباد و الزهاد" في كتاب الشيخ عبد الحي اللكنوي (1204– 1264 هـ) : "إقامة الحجة على أن الإكثار في التعبد ليس ببدعة"[2] .

ولا شك في أنه لا قيمة للأدلة التي توردها مثل هذه الكتب إلا لو إفترضنا بصورة مسبقة أن أعمال "الأكابر" المشار أليهم صحيحة بصورة لا يرقى إليها الشك وإحتمال مجانبة الصواب . أما لو نبذت هذا الإفتراض المسبق فسترى أن هذه الأدلة والبراهين ليست ذات قيمة من الناحية العلمية . ويقال على سبيل المثال أن

---

1 رواه البخاري و مسلم.

2 نشر بحلب ، سنة 1966 .

"الرسول ε كان يترك كثرة العبادات شفقة على أمته ورحمة على أتباعه لئلا يتحرجوا باتباعهم في ذلك" .. إن وهن هذا الإستدلال يتضح حين نقارن موقف النبي ε إزاء قضية الدعوة . فلو كان إعتدال الناس في العبادة شفقة بأتباعه فلماذا ترك لنا سنة "لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين"[1] .

إن الحقيقة هي أن الله تعالى لا يطلب من عباده أن يقوموا بالبطولات الوهمية كأن يصلوا الفجر بوضوء المغرب لمدة خمسين سنة على التوالي ، أو كأن يختموا القرآن ثماني مرات في اليوم الواحد .. إن إخضاع الجسد للمشاق التي لا لزوم لها أو الإعادة الرتيبة لأشكال تعبدية معينة ليل نهار ، ليس من الأمور المطلوبة عند الله تعالى . إن غاية ما يطلبه الله تعالى من عباده هو من الناحية الداخلية أن يكونوا مغمورين بحبه ومخافته تعالى . والمطلوب من الناحية الخارجية أن تكون جميع أنشطتهم العملية مطابقة لتعاليم الله وأحكامه ، من جهة ، وأن يسعوا قدر جهدهم لإدخال العباد الآخرين إلى دائرة الطاعة لله ، من جهة أخرى . ولو إفترضنا أن قصص الإكثار من العبادة ، التي تروى عن بعض "الأكابر" هي قصص صحيحة ، فسلوكهم هذا ليس هو الدين الذي جاء به النبي العربي

1 **الشعراء (3)**

محمد ε والذي يوجد محفوظا لدينا حفظا كاملا في صورة القرآن الكريم والسنة النبوية . إن هذه البطولات المنقولة عن المتأخرين لا تمت إلى الهدي المحمدي بأية صلة ، ما في ذلك من شك .. إلا أن من علامات عصور الإنحطاط أن تنتفي الجرأه لنقد الرجال وتقويم أخطائهم . ولذلك بدأ عندنا التبرير ، بل وحتى استحسان هذه الأعمال بدلا من إستنكارها ، حتى أصبحت رويدا رويدا أعمالا مقدسة وتعذر التفكير عن إمكانية وجود نقص أو خطأ بها . إن قسوة الحافظ الذهبي (748 هـ) وابن تيمية (728 هـ) على الصوفية معروفة ، و لكنهما أيضا ينقلان قصص الإكثار من العبادة دون نقد في سياق الحديث عن شخصية ما .. بينما تكون هذه القصص من الناحية الواقعية ، بدون أساس عموما ، أما الدين فلا علاقة له بهذه القصص البتة . وهذا ينسحب على معظم مكتبتنا .

أما الصورة الأخرى من التصوف ، وهي الإضافة النوعية في العبادات ، فهي أخطر وأشنع من الصورة الأولى . وإذا كانت الصورة الأولى (إعتداء)[1] في المصطلح القرآني ، فالصورة الأخرى (إبتداع)[2] والمعلوم أن الإحداث والإبتداع في الدين ، مهما كان عن نية حسنة صادقة ، فهو أمر مردود ومرفوض قطعا ومطلقا . فقد روى البخاري ومسلم عن النبي ε قوله : "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه

1 ((ادعوا ربكم تضرعا و خفية إنه لا يحب المعتدين)) **: الأعراف : 55.**

2 ((و رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم)) : **الحديد** : 27 .

فهو رد" . وقد كتب إمام زاده جوغي السمرقندي (ـ 572 هـ) في كتابه "**شرعة الإسلام** " عن الصحابة أنهم كانوا : "ينكرو أشد الإنكار على من أحدث أو إبتدع رسما لم يتعهدوه في عهد النبوة ، قلّ ذلك أو كثر ، صغر ذلك أو كبر"[1] .

إن هذا الإنكار الشديد من الصحابة الكرام كان إزاء العبادات ، وليس إزاء المعاملات . فالمعاملات البشرية ذات علاقة عميقة بالدنيا ، وهي لا تستقر ولا تبقى على وتيرة معينة ولذلك أجيز بكل صراحة أن يتوصل المؤمنون إلى حلول جديدة ، وهو الأمر الذي أشار إليه القرآن "بالاستنباط"[2] وأشير إليه "بالاجتهاد" في حديث معاذ بن جبل .

أما العبادة فتتعلق بسلوك البشر إزاء الوجود الإلهي الأزلي والأبدي الذي لا يتغير ولا يتعرض للإضافة والنقصان . إنه يمكن مراعاة ظروف عبد ما نظرا لمرض أو عاهة أو بسبب الحكمة التدريجية ، ولكن لا يمكن الإنقاص أو الإضافة في العبادات بناءً على القياس البشري . إنه لا سبيل في العبادات إلا الإتباع . وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : "اتبعوا ولا تبتدعوا" .. أما المعاملات فكانت تخضع للاجتهاد دائما ولم ينكر ذلك أحد من الصحابة الذين لم يكونوا يتحملون أي جديد في العبادة .. يقول ابن الصحابي عبد الله

1 شرعة الإسلام ، ص 9.

2 ((و لو ردّوه إلى الرسول و إلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه)) **النساء : 83 .**

بن مغفل : "سمعني أبي وأنا في الصلاة أقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال لي : أي بنيّ محَدث ! إياك والحدث!"[1] .

إن المعاملات الدنيوية متغيرة بطبيعتها بتغير الأحوال الدنيوية ، ولذلك أبيح الإجتهاد بشأنها . ولكن المطلوب من الناحية التعبدية والروحية لا يتغير ولا ينقص ولا يزيد ، فلا إجتهاد فيه ، بل الإتباع فقط .. وقد روى ابن عبد البر عن سعيد بن المسيب أن الخليفة عمر بن الخطاب خطب في الناس فقال لهم :

"يا أيها الناس : إنه قد سنّت لكم السنن وفرضت لكم الفرائض وتركتم على الواضحه ، ألا أن تضلوا بالناس يمينا وشمالا !"[2] .

وقد عدد الإمام ولي الله الدهلوي الفتن التي ابتليت بها الأمة المحمدية فحصرها في ثلاثين فتنة . والفتنة العاشره في رأيه هي "اختراع أوراد ووظائف غير الوظائف والأوراد المأثورة في السنة النبوية ، وذلك بهدف التقرب إلى الله عز وجل أي لغرض نيل الثواب والإلتزام بأمور مستحبة – وكأنها واجبات – وبروز الرغبة في القلب لنشر الوظائف المخترعه"[3] . ومن الروايات التي نقلها الإمام الدهلوي[4] ما رواه (الدارمي) في سننه عن حكم بن مبارك عن عمرو بن يحي قال : سمعت أبي يحدث عن أبيه ، قال : "كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الغداة فإذا خرج مشينا معه

---

1 **رواه الترمذي و النسائي و ابن ماجة و البيهقي ..**

و لا بأس لو خرجت كلمة ما بسبب تأثير وقتي من حمد لله و دعاء ، و لكن لا يجوز تحويل شيء من هذا النوع إلى قضية فقهية و دينية .

2 **جامع بيان العلم و فضله** ، ج 2 ، ص 187 .

3 و لي الله الدهلوي ، **إزالة الخفاء** (المقصد الأول).

4 **إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء** ، المقصد الأول.

إلى المسجد فجائنا أبو موسى الأشعري فقال : أخرج إليكم أبو عبد الرحمن بعد ؟ قلنا : لا ، فجلس معنا حتى خرج فلما خرج قمنا إليه جميعا فقال له أبو موسى : يا أبا عبد الرحمن إني رأيت في المسجد آنف أمرا أنكرته ولم أرَ والحمد لله إلا خيرا . قال : فما هو ؟ فقال : إن عشت فستراه ، قال رأيت في المسجد قوما حلقا جلوسا ينتظرون الصلاة ، في كل حلقة رجل وفي أيديهم حصى فيقول كبروا مائه فيكبرون مائة ، فيقول هللوا مائة ، فيهللون مائة ، ويقول سبحوا مائه فيسبحون مائه . قال : فماذا قلت لهم ؟ قال : ما قلت لهم شيئا إنتظار رأيك أو إنتظار أمرك . قال : أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم وضمنت لهم أن لا يضيع من حسناتهم . ثم مضى ومضينا معه حتى أتي حلقة من تلك الحلق فوقف عليهم فقال : ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ . قالوا : يا عبد الله حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح ، قال : فعدوا سيئاتكم فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شئ ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم ! هؤلاء صحابة نبيكم ε متوافرون وهذه ثيابه لم تبل وآنيته لم تكسر ، و الذي نفسي بيده إنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد أو مفتتحوا باب ضلالة ! قالوا : والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير . قال : وكم من مريد للخير لن يصيبه. إن رسول الله ε حدثنا أن قوما

يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، وأيم الله ما أدري لعل أكثرهم منكم"[1] .

إن هذه الرواية التي رواها (الطبراني) أيضا وكذلك أوردها (أبو نعيم) في **حلية الأولياء** ، بكلمات مختلفة ، تكفي للدلالة على حساسية الصحابة الكرام المفرطة إزاء الأمور التعبدية وكانوا ينكرون ويرفضون أي جديد أو بدعة ، مهما كان ذلك صغيرا .. ناهيك عن أن يكثر الجديد وتتضخم البدع حتى تصبح دينا موازيا ويظهر له خبراؤه ومعلموه ومرشدوه .

اللغة الوصفية:

كان الباعث الأول لظهور التصوف يكمن في رغبة بعض الناس في وضع **(فقه باطني)** وتصنيف قواعده على غرار الفقه الظاهري. ولم يكن هذا الأمر بسهل وهين .. فهو يعني بيان حقيقة (**كيفية**) بلغة (**وصفية**) . إن المصطلحات الفنية لا تحيط إلا بالجوانب الخارجية لشئ ما . ولذلك كان تحويل العلاقه **الكيفية** بين العبد وربه إلى قضية **فنية** أمرا يبعث على إختلاف شديد في الدين والمؤمنين به . و هذه المحاولة هي كأن يحاول أحد من الناس شرح كيفية الحب باللغة الرياضية الحسابية .

إن هذا الجهد قد فصل الجانب (**الكيفي**) في العبادة عن جانبه (**الخارجي**) فتحول الذكر إلى (ورد) و (تسبيحات) ؛ وتحولت

---

1 **سنن الدارمي ،** طبعة دار الفكر بيروت ، ب ، ت ، جـ 1 ص 68 – 69.

كثرة الذكر إلى تكرار بعض الكلمات المخصوصة المعينة على أزرار المسبحة بصورة رتيبة ، وتحول (**تدبر**) القرآن[1] إلى تلاوة القرآن ، وذلك لأن مكيال الذوق الصوفي قادر على وزن (التلاوة) بينما هو يعجز عن وزن التدبر والتفكر في آيات الله . وهذا هو السبب في أننا ، بينما نجد في فهرس الأذكار الصوفيه كلمات (الله) و (لا إله إلا الله) ، لا نجد فيه أشياء كثيره جدا لها أهميتها البالغة في الدين (**كالآخرة**) و (**نعمة الله**) و (**آلاء الرب**) و (**الموت**) ، وهذا يرجع إلى أن ذكر كلمة (الله) ممكن بينما يصبح ترديد كلمات كالآخره و النعمة و الآلاء و الموت بدون مغزى في هذا النظام .

وبما أن العلاقة بالله أصبحت ممكنة البيان من الناحية الخارجية في ظل هذا النظام ، فكان الإتجاه التلقائي هو وضع أساليب خارجية لإكتساب هذه العلاقة . وافترضوا بالقياس المحض أن ستة أمكنة من الجسد البشري مليئة بالأنوار و البركات ، وسموها (باللطائف الستة) .. وقالوا أن اللطيفة الأولى (القلبية) تقع تحت الثدي الأيسر ، واللطيفة الثانية (الروحية) تقع أعلى الثدي الأيمن ، واللطيفة الثالثة (النفسية) تقع تحت الصرة ، واللطيفة الرابعة (السرية) تقع في وسط الصدر ، واللطيفة السادسة (الأخفى) فتقع في (أم الدماغ) ! واستنادا لهذا الإفتراض ، الذي لا يستند إلى سلطان ، وضعوا (أشغالا) وضربات و "مراقبات" غريبة وعجيبة ، وأدعوا أن القصد منها هو الضغط على "مقامات الأنوار"

---

1 أنظر الآيات الدالة على هذه المعاني في الآيات القرآنية الكريمة : محمد 24 ، المدثر 55 ، والمائدة 20 ، والأعراف 69 .

حتى ينطلق الجسد كله يذكر الله . ومن هذه الأشغال أن تغمض العينين والشفتين وأن تخرج النفس من الصرة وتحبسها في القلب وأن تخرج (لا) من الصرة حتى الحلقوم ثم تدخل (إله) من حلقوم إلى مقام اللطيفة الروحية ثم تضرب (إلا الله) بكل قوة في مقام اللطيفة الأولى (القلب) حتى يصل أثرها إلى كل اللطائف الأخرى . لقد وضعوا أمورا لا تعد و لا تحصى من هذا النوع بجرأة مذهلة ، وألحقوها بالعبادات "كوسائل مساعدة" . وكلمة "مساعدة" هذه كانت محض تنازل رمزي لأن أصحابها أضحوا يعتقدون أن هذه الوسائل والطرق أنجح في أداء الأهداف الدينية من الوسائل الدينية المعروفة . وقد قال أحد المشاهير : إن ثلاثة طرق توصل إلى الله ، وهي (الصوم و الصلاة) ، و (تلاوة القرآن) و (التصوف) وقال عن الطريقتين الأوليين : "إن السالكين لهما يصلون إلى مقصودهم بعد مدة من الزمان طويلة" .. وكتب آخر يقول مدافعا عن التصوف : "إنها خير طريق وأسرعها للبلوغ إلى غاية تزكية النفس وتربيتها"[1] .

إن الإلتباس الذي وقع هؤلاء ضحيته هو أنهم لم يفرقوا بين الكيفية النفسية الداخلية وبين الكيفية العادية الخارجية . إن الضغط على وريد "الكيماس" أو تعويج العنق أو تمرير الأنفاس المصحوبة بكلمات أو أصوات معينة قد يجعل من تلك الكلمات أو الأصوات جزءا لا شعوريا من وظائف الإنسان الفطرية . ولكن ما علاقة هذه الرياضة اللفظية بالإسلام ؟ ولو أدت رياضة كهذه بشخص ما إلى سماع

1 **عبد الباري الندوي ، بين التصوف و الحياة** ، دمشق 1962 ، ص 33.

كلمات معينة في دقات قلبه أو أنفاسة فذلك ليس هو الشئ الذي يطلق عليه القرآن كلمة "الذكر" .. إنه وهم محض لا أكثر .. ولو أنك ضممت صوتك إلى صوت ماكينة ما ، ناهيك عن القلب والتنفس ، وبدأت تقول "الحق ، الحق" مع صوت الماكينة فستشعر بعد قليل أن أن الصوت الخارج من الماكينة ليس إلا "الحق ، الحق". و من أشنع الأخطاء أن تعتقد أن هذا هو "الذكر" المطلوب . فالذكر كيفية نفسية سامية تصبح جزءا من شعور المؤمن بدلا من أن تصبح مجرد عادة .

وكانت النتيجة الحتمية لهذه الإضافة في الدين أن ظهرت بدعة أشد وأشنع ، وهي عقيدة "المرشد الكامل".. فبما أن طرقا جديدة على القرآن والسنة ظهرت لإقامة علاقة العبد بربه ، وظنوا أنها طرق أسرع و أنجع ولا يعرفها إلا "الخاصة" ، فقد تحول الدين من علم ظاهر ومكشوف إلى دين باطن سري . (يقال عن الخواجة معين الدين الجشتي الهندي، على سبيل المثال ، أنه نال "شغل البساط" من الرسول مباشرة فحصل على المعراج الباطني!) .. وأصبح من الضروري التقرب إلى هؤلاء الخواصّ الذين يملكون العلوم الروحانية السرية وينقلونها إلى أتباعهم ومريديهم . وتطلب هذا الأمر ، كذلك أن يتملك الشيوخ قوى تسخيرية قادرة على الضرب على قلوب مريديهم في عالم الخيال فتملأها بالأنوار والبركات . وبسبب هذا المقتضى أخذ الشيوخ ينصرفون أكثر وأكثر إلى العمليات والأشغال الروحية فظهر أناس قادرون على بعث

"الإضطراب" في قلوب مريديهم وزوارهم بنظرة واحدة ، وعلى تغيير نفوسهم في لمحة البصر ! وهكذا تقمصت فنون الرهبان المسيحيين والهندوس الزي الإسلامي فاندسّت إلى الديانة الإسلامية .

وعند هذا الحد دخلت مؤسسة "الكهنوت" إلى الإسلام من أوسع الأبواب . وكان الرسول الكريم قد أخبرنا بأنه لا كهنوت ولا رهبانية في الأمة المسلمة ، وهو أمر يعتبره القرآن بأنه "**إتخاذ العباد أربابا من دون الله**"[1] وبدأوا يقدمون تصورات مبالغا فيها عن شيوخ التصوف ، فقيل على سبيل المثال : "الشيخ في قومه كالنبي في أمته" ، و "من أراد أن يجلس مع الله فليجلس مع أهل التصوف" . ونشروا القصص والأساطير حول معجزات الشيوخ وكرامات الصوفية حتى أصبحت جزءا من اللغة والأدب . وأخذ الناس يرددون قصصا وروايات خرافية مؤمنين بأنها وقائع حقيقية . وأخذت مجالس ومواعظ الشيوخ تزدهر عن طريق هذه القصص المدهشة ، حتى نسوا أنهم – بترديدهم هذه القصص – يقولون للناس ، بصوره غير مباشرة : أن شيوخهم كانوا أعظم وأجل من صحابة الرسول الكرام الذين لم يأتوا بمثل هذه الكرامات المدهشة بكل تأكيد . إن بعض الوقائع الخارقة التي وردت عن الصحابة في الروايات الصحيحة هي ليست كرامات بقدر ما تتصل بنصرة الله لأهل الإيمان .

---

1 انظر التوبة : **31 / آل عمران : 64** . مثل قوله تعالى (اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون الله).

إن الشيء الثابت في الإسلام هو نصرة الله التي تأتي نتيجة استحقاق أهل الإيمان وبقبول أدعيتهم . إن النصرة الإلهية التي نالها الصحابة الكرام ممكنة الوقوع لمسلمي اليوم بشرط أن يضطلعوا بالواجب الذي كان الصحابة يقومون به خير قيام . إن الفرق الشاسع بين كرامات الصحابة الكرام وكرامات الشيوخ المعاصرين يتضح في أن الصحابة استأصلوا الباطل والشر في أرض العرب والعجم بينما شيوخنا "المتصوفة" . [الذين يدعون تسخير الجن والإنس والنبات والحيوان في عالم الكرامات المزعوم] . هم أعجز البشر في عالم الحقيقة . فقوى الباطل تدوس الإسلام وأهله في كل أرجاء المعموره وهم عاجزون عن الإتيان بأدني شئ من الدفاع ، فهم يعيشون إما بالإنقطاع عن معارك الحياة أو بتملق الحكام .

إن تقديس "المشائخ"[1] وبكلمة أخرى ظهور مؤسسة "الصالحين" لم تنته عند هذا الحد . فقصص الكرامات والأعاجيب المختلقة التي تكون أبرز جزء من المجالس الصوفية ، زرعت الأوهام في عقول الناس فأخذوا يعتقدون أن شيوخهم طبقة أخرى مستقلة عن عامة البشر كما كان الأنبياء والملائكة طبقة أخرى مختلفة عن العامة . واعتقدوا أن هؤلا مختارون ومصطفون لدى الله . ونسب الناس إلى هؤلاء صفات عديمة المعاني بصورة مدهشة . ومن هذه التصورات رواج الإعتقاد بوجود أناس معينين تعيينا ، ما له من

1 المراد بالمشائخ هنا رجال الطرق الصوفية المنحرفون .

سلطان ، ويطلق على هؤلاء "أولياء الله"[1] . ويقول هذا الإعتقاد : ان أولياء الله نوعان : (أهل الإرشاد) و (أهل التكوين) . وأهل الإرشاد هم الذين اختارهم الله لهداية البشر وإصلاح القلوب وتربيتها ولتعليم الناس طرق التقرب إلى الله . ويسمى أفضل أولياء عصره "قطب الإرشاد" .. أما النوع الثاني – "أهل التكوين" – فيطلق على الأولياء المناط بهم إصلاح معاش البشر وتنظيم أمور العالم ودفع المصائب . وهؤلاء يقومون بإصلاح شئون الدنيا بإذن من الله . ويسمى أعلى الأولياء وسيدهم "قطب التكوين" . ويقولون : إن أهل الإرشاد كالأنبياء و أهل التكوين كالملائكة الذين وصفهم الله بـ "مدبرات الأمر" !!

إنه من الأمور المدهشة حقا أن عددا لا يحصى من البشر قد قبل هذه العقيدة بمنتهى الإخلاص رغم أن كلا من القرآن الكريم والأحاديث يخلوا من أي شئ يؤيد هذه العقيدة .

ومهما كان مبلغ إخلاص الذين أبتكروا التصوف في بداية الأمر ، فلا شك في أن التصوف في حقيقته هو عين الشئ الذي أطلق عليه القرآن وصف **"الإبتداع"**[2] . لقد فكر بعض الصالحين ببساطة وبراءة في أن يضعوا بعض الطرق الإضافية الجديدة التي تساعد الناس على تقوية صلتهم بالله ، لتكون وسائل معاونة للعبادات

1 هم غير أولياء الله الذين جاءوا في القرآن و الذين يشملون كل مسلم تقي ورع صالح !! .

2 (و رهبانية إبتدعوها) .

الإسلامية المنصوص عليها . وقد فات هؤلاء أنهم بعملهم هذا يدخلون عبادة البشر إلى الإسلام بينما الأصل هو عبادة الله لا غير . فعندما يكون البحث عن التقرب إليه علما لا يكتسب بتدبر القرآن ودراسة الأحاديث النبوية ، بل يكتسب من أقوال وسلوك أناس معينين ، فالنتيجة الحتمية هي أن هؤلاء البشر سيصبحون "المرشدين" و "المراجع" و "النفوس المزكاة" الذين "يرثون" هذا العلم عمن سبقهم جيلا بعد جيل . إن هؤلاء الصالحين باختيارهم هذا الأسلوب في تربية الناس ، دخلوا الدائرة المحظورة ، **لأنه لا تجوز أية إضافة إجتهادية في أمور العبادات ، بصورة مطلقة.**

إن أمرين كانا من أغرب الإنحرافات التي وقع فيها المسلمون في العصور المتأخرة .. وأحدهما هو **إغلاق باب الإجتهاد في "المعاملات"**، وثانيهما : **فتح باب الإجتهاد في "العبادات"..** بينما العكس هو مطلوب الشريعة الحقيقي .. فقد أجيز للمسلمين بصورة صريحة أن يجتهدوا ، في إطار تعاليم الإسلام الأصولية ، لمعالجة القضايا الجديدة . ولذلك إجتهد الفقهاء الأوائل في قضايا كثيرة و لكن قيل للمتأخرين : "إن الأوائل لم يتركوا للأواخر شيئا" !! إن هذا النوع من القول جراءة مدهشة ومؤسفة في حق الدين . وإذا كان يجوز لفقهاء القرن الثاني الهجري أن يجتهدوا ، بالرغم من وجود القرآن والسنة ، فهل فتاوى هؤلاء الأئمة أكثر جامعية وشمولا من كتاب الله وسنة رسوله ، حتى لا يسمح للآخرين بالإجتهاد مهما تغيرت الأحوال ؟ !

إن الذين تعلموا الإسلام بمصاحبة الرسول الكريم مباشرة كانوا غير قادرين على تقبل ظهور "مؤسسة الصالحين" في الدين والتي تقتضي أن يبدأ الناس في التعاقب على مناصب القيادة الدينية مثل ما يتعاقب الناس على العروش وكراسي الحكم .

إن الصحابة الكرام لم يكونوا يعترفون بشئ للهداية ماعدا كتاب الله وسنة رسوله . وكانوا ينقدون عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما ينقدون أي إنسان آخر . ولم يكونوا يقبلون برأي الخليفة إحتراما لذاته بل حين يكون قد أثبت دعواه بالبرهان الصادق ... إشتكى الخليفه الرابع علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - إلى القاضي شريح من يهودي بشأن الدرع وجاء بعبده قنبر وولده الحسين شاهدين له ، فلم يقبل شريح شهادة الحسين رغم كل ما كان يحيط به من طهر وثقة ، فقال له علي : "أترد شهادة الحسين وقد قال رسول الله ε : "الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة" ، قال : "لا ، ولكن حفظت عنك أنه لا تجوز شهادة الولد على والده"[1] .

وكان تصور الصحابة عن إقتداء البشر أن يقتدى بمن مات بدل من إتخاذ الأحياء "شيوخا للقدوة" لأن أحدا من الأحياء ليس معصوما عن الأخطاء ، فيمكن لكل البشر ، ما عدا الأنبياء ، أن يقعوا في

---

1 كنز العمال ، ج 4 ، ص 6 .

الفتنة في وقت من الأوقات . وقد قال بن مسعود : "من كان مستنا فليستن بمن قد مات ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة" .

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : "إياكم والإستنان بالرجال ، فإن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة ثم ينقلب لعلم الله فيه فيعمل بعمل أهل النار فيموت وهو من أهل النار . وإن الرجل يعمل بعمل أهل النار فينقلب لعلم الله فيعمل بعمل أهل الجنة فيموت وهو من أهل الجنة ، فإن كنتم لا بد فاعلين فبالأموات لا بالأحياء"[1] .

إن مؤسسة "الصالحين" ، التي ظهرت في الأمة الإسلامية في العصور المتأخرة ، لا تقوم على برهان أو سلطان من كتاب الله وسنة رسوله . إن شيئا من هذا النوع غريب على هيكل الإسلام . إنها تقليد ومحاكاة للأنظمة السائدة لدى الأمم الأخرى كمؤسسة الكهنوت والرهبانية التي تسللت إلى الإسلام متخفية برداء المصطلحات الإسلامية . إن شيئا من هذا النوع سوف يستمر في الإسلام ما دامت "حكايات" و "مكتوبات" وتكهنات "مؤسسة الصالحين" الخرافية هي منبع الدين دون كتاب الله وسنة نبيه . و في اللحظة التي يصبح فيها كتاب الله وسنة نبيه منبع الدين ومرجعه ستختفي هذه المعتقدات كأن لم يكن لها من وجود !!

1 ابن عبد البر ، **جامع بيان العلم و فضله** ، ج 2 ص 114.

3 – علم الكلام :

ودخل الفساد الثالث إلى الإسلام عبر "علم الكلام" . إن علم الكلام ، في حقيقته ، أداة مساعدة للدعوه الإسلاميه ويهدف إلى إبلاغ حقائق الدين بنفس اللغة والمصطلحات التي يأنس لها المدعو في عصره . ونظرا لأهمية علم الكلام أدخل الإمام الغزالي (1059-1111م) مادة "المعقولات" إلى منهج دراسة الطلبة حتى يتخرج العلماء المتمكنون من الدين والقادرون على تمثيل الدين بإسلوب العصر . ولكن علم الكلام من حيث نوعيته نفسها علم زماني مؤقت ، فهو يشرح حقائق الإسلام الدائمة بمصطلحات وقتية رائجة في عصر المدعو . ولذلك تنتهي أهمية علم الكلام تلقائيا بنهاية العصر الذي وضع فيه. ولكن ضعف البشر المتجلي في الميادين الأخرى لعب دوره في هذا المجال أيضا . فعندما يظهر إلى الوجود شئ ما وتنتسب إليه أسماء بعض الشخصيات المبجلة فإن ذلك الشئ يكتسب القدسية على مر الزمن حتى يحين وقت يصبح مجرد التفكير في إصلاح ذلك الشئ أو ترميمه أو تحديثه ذنبا من الذنوب عند الناس المؤمنين به.

وهذا هو عين ما حدث للمكتبة الكلامية التي وضعت في العصر العباسي . وكان علم الكلام آنذاك فعالا حتى حول العلوم المتحدية إلى علوم طيعة خادمة للدعوة الإسلامية . ولكن التطور الزمني قد ألغى فائدة علم الكلام القديم بصورة قطعية . إن من الأصح أن توصف (المعقولات) التي تدرس لطلبة المدارس الدينية

اليوم ، بأنها (غير معقولات) .. فإن هذه المعقولات قائمة على قياسات عقلية أبطلتها المشاهدة العلمية والتجربة الحديثة . إن الشئ الذي كان يتمتع يوما ما بفائدة وقتية ، تحول على مر الزمن وبدون تطوير إلى جزء لا يتجزأ من منهج الدراسة الدينية . إن نصوص التعاليم الإسلامية لم تتأثر بهذا الخطأ ، ولكن نظام التعليم الإسلامي هو الذي أصبح ضحية هذا التمسك بشيء فقد قيمته في هذا العصر الحاضر . إن هذا هو الوضع الذي يحول دون ظهور الإسلام كفكر سائد في عالم اليوم . إن مدارسنا الدينية بمنتهى الإخلاص وحسن النية مشغولة في تربية وتخريج أناس كانوا مفيدين للعمل قبل خمسة قرون من الزمن . إن من الواضح أن أمثال هؤلاء لا يستطيعون إظهار الإسلام على المستوى الفكري في هذا العالم المتغير . فلا يمكنهم نظرا لعقليتهم ومزاجهم إلا أن يمثلوا الإسلام تمثيلا هابطا فيؤكدوا أن الإسلام كان أمرا صالحا لعصر ما قبل العلم وإنه لا يصلح لإنسان العصر الحديث .

وقد حاولت بعض الحركات الإسلامية الحديثة أن تملأ هذا الفراغ .. وعلى سبيل المثال : الحركات التي عرضت تعاليم الإسلام بمصطلحات سياسية. وقد أفادت هذه الحركات فوائد مؤقته دون شك . ولكن لسوء الحظ فإن فسادا معينا شاب هذه الحركات منذ البداية . فهذه الحركات كانت في حقيقتها حركات كلامية ، وقد نشأت في خضم الأفكار الغربية في القرن التاسع عشر ، لتجعل الدين مقبولا لعامة المسلمين ، ولكن دعاة هذه الحركات

المتحمسن لم يكتفوا ببيان الإسلام بمصطلحات سياسية بل أخذوا يدونون التفسير والسيرة بناء على نظرتهم السياسية الخاصة ووصلوا إلى درجة الإعلان عن أن الأنبياء لم يبعثوا في مختلف العصور إلا لإقامة الحكومة الإلهية . وهكذا أعطوا لمكتبتهم الكلامية عنوان (تفسير الدين) بعينه ، بدلا من أن تكون إستجابة لضرورة وقتية . ولم يكن هذا الفعل محض جرأة على الدين ، بل إنه في الوقت نفسه أصاب أتباع هذه الحركات بنفس الجمود الذي كانت المؤسسات الدينية القديمة تعاني منه .

إن فكر القرن التاسع عشر السياسي ، الذي أفرز هذه المكتبة الكلامية ، قد إنتهى بنهاية الحرب العالمية الثانية . وكانت الضرورة تقتضي بوجوب إعداد مكتبة كلامية جديده في ضوء المقتضيات الفكرية الجديدة . ولكن هذه المجموعة لا تزال اليوم تتلوا تلك المكتبة السياسية القديمة ، بصورة لا طائل من ورائها ، تماما كما تنهمك المدارس الدينية في تدريس المعقولات اليونانية الميتة .. والسبب في هذا الجمود هو أن هذه المجموعة لا تزال تظن أن مكتبتها هذه تفسير مطلق للدين وليس بعلم كلام ناتج عن ضرورة وقتية في عصر معين .

إنه لا وجود اليوم لأفران الحديد التي أنشأت إبان الحملات الصليبية في مصر والشام ، لصناعة الأسلحة : فقد فقدت هذه الأفران أهميتها بمرور الزمن . وهكذا كان ينبغي أن تختفي المعقولات القديمة من المكتبة الإسلامية العلمية فتصبح جزءا من

الماضي لا أكثر . فالشئ الذي يظهر نتيجة ظروف وقتية يزول ، كذلك بانتهاء تلك الظروف . و لكننا لم نتخلص بعد من المعقولات القديمة . والسبب في هذا يعود إلى أن المعقولات القديمة قد دخلت إلى مكتبتنا الفنية فأصبحت جزءا منها . وكان زمن دخول هذه العلوم الأجنبية إلى المجتمع الإسلامي هو زمن تدوين العلوم الإسلامية ، فتأثر الناس بسحر المنطق القديم وظنوا أنه أفضل أسلوب لتدوين العلوم الإسلامية . ولذلك ألفت الكتب الإسلامية بأسلوب المنطق القديم ، فأصبح المنطق القديم جزء لا يتجزأ من المكتبة الإسلامية . إنه من السهولة بمكان أن نقنع أي عالم دين بضرورة إخراج المعقولات القديمة من مناهج المدارس الدينية . ولكن السؤال الذي سيثور من فوره هو : إذا كيف سنعد العلماء القادرين على فهم كتبنا الفنية ؟ إنك لو قضيت على المعقولات القديمة فلن تجد أي صعوبة في فهم كتاب الله وسنة نبيه لأن هذين المصدرين الأساسيين لم يدونا على أساس مصطلحات المنطق القديم ، أما كتب علم العقائد وأصول الفقه فلا يمكن فهمها إلا إذا كان القارئ على دراية جيدة بالمصطلحات المنطقية الفنية القديمة .

إن أكبر خساره نتجت عن ربط المعقولات اليونانية بالدين هي ظهور منهج جديد لتدبر الدين وبيان المسائل مغايرا لمنهج الرسول ε وصحابته الكرام .

لقد أفتى الحنفية بعدم قراءة الفاتحة خلف الإمام . وحين عرض بعض الناس أمام الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي (الهندي) الحديث المروي عن رسول الله ε أنه سأل بعض أصحابه ذات يوم عما إذا كانوا يتلون القرآن خلف الإمام ، فأجابوه بنعم ، فقال لهم الرسول : (لا تفعلوا إلا بأم القرآن) .. فرفض الشيخ رحمه الله ، الإعتراف بهذا الحديث ، الذي يقول بعكس ما ذهب إليه الأحناف ، وقال : (هذا دليل الإباحة ، لا دليل الوجوب)[1] .

إن هذا مثال بسيط يدل على أسلوب النقاش والجدل الديني الذي راج بيننا في العصور المتأخرة ، وهو أسلوب بعيد كل البعد عن الأسلوب البسيط غير المعقد في بدء الإسلام . واليوم لا يعتبر من (العلماء) إلا من يكون قادرا عى تبيان المسائل الدينية بهذه اللغة الفنيه ، وبهذا الأسلوب المنطقي .

صحيح أن هذا الأسلوب لتناول المباحث الدينية جيد من الناحية الفنية ، ولكن لا شك في أن هذا ليس هو الدين الذي تركه لنا النبي العربي ε الذي كان يفخر قائلا : "نحن أمة أمية"[2] ،.... و "بعثت بالحنيفية السمحة".. أما نحن فحولنا ديننا إلى دين معقد وفني اتباعا لأساليب اليهود والنصارى الذين عقّدوا دين موسى وعيسى عليهما السلام . إن كون هذا (الدين الفني) غير إسلامي

---

1 ذكر هذه الواقعة الشيخ محمد يوسف البنوري في كتابه **نفحة العنبر** .

2 صحيح البخاري ، باب رؤية الهلال .

أمر واضح من الحقيقة الصارخة وهي أنه لو كان أحد صحابة الرسول الكرام على قيد الحياة اليوم لما تمكن من الجلوس على كرسي (شيخ الحديث) في إحدى مدارسنا الدينية لعدم كونه مؤهلا لذلك من ناحية إستيعاب العلوم الفنية ... إن الصحابة الكرام ، بل وحتى الرسول الكريم ε ، لن يكونوا مؤهلين لتدريس علوم الحديث كما تدرّس الآن بهذه المدارس .

إن أسلوب البحث المنطقي القديم قد فقد وزنه في العصر الحاضر . فالمنطق القديم يقوم على قياسات عقلية بينما يقوم المنطق الحديث ، الرائج في هذا العصر ، على العلم الذي يثبت الآراء بالوقائع وبالتحليل التجريبي . أما الكتب التي تدرس في المناطق الدينية فهي قد ألفت في ضوء المنطق القديم ويشرحها الأساتذة ويدرسها الطلبة في ضوء ذلك المنطق البائد ، ولذلك يتخرج في هذه المدارس العلماء الذين يكونون غرباء على زمنهم فكرا ومنهجا واستدلالا . إنهم غير قادرين على إقناع إنسان العصر بدينهم منطقيا وعلميا رغم تسلحهم (بالأسلحة المنطقية) التي تدربوا عليها في مدارسهم . إنهم يصابون بعقدة النقص حين يدخلون معترك الحياة ، أو حين يصطنعون الجرأة فينصبون أنفسهم دعاة إلى الإسلام .

إن شروحهم للإسلام تعطي لإنسان العصر إنطباعا واحدا ، وهو أن الإسلام لم يكن يبعث الطمأنينة إلا في إنسان العصر القديم

فالإنطباع الذي يجده إنسان العصر الحديث من خلال هؤلاء هو أن الإسلام لا يملك شيئا لبعث السكينة والطمأنينة في عقله ونفسه . وما أسوأ هذا التمثيل للدين الإلهي الذي يمكنه ، لو أحسن عرضه أن يسود كل أرجاء المعمورة !.

لقد آن الأوان لبدء جهد دءوب ومخلص لتطهير الدين الحنيف من رواسب عصور الانحطاط ، لكي يصبح كتاب الله وسنة نبيه هما وحدهما مصدر الدين ومنبعه ، بدلا من فنون وقتية طفيلية فقدت جدواها وأصبحت عائقا في وجه نشر الدعوة الإسلامية وفي فهم المسلمين دينهم الفهم الصحيح .

معقولات اسلامية

نحو علم كلام جديد[1]

يخبرنا القرآن الكريم بأن الله تعالى يقوم بتدبير الأمر وتفصيل الآيات . قال الله تعالى : "كل يجري لأجل مسمى ، يدبر الأمر ، يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون" {الرعد 2 } .

وتدبير الأمر يعني تنظيم الكون الذي تسمى جوانبه الخارجية بالعلوم الطبيعية ، وتفصيل الآيات يعني الوحي الذي تتمثل آخر صورة في القرآن الكريم المحفوظ لدينا . وعلم الكلام في حقيقته هو محاولة لفهم وحدة العلم الموحي والعلم الكوني ، وفهم الكون المجهول بالكون المعروف .

ولو نظرنا الى الأمر من هذه الناحية فسنجد أنه لايوجد في الأسلام شئ يسمى بعلم الكلام الجديد أو القديم . فعلم الكلام في حقيقة الأمر لم يكن أكثر من تدوين معقولات القرآن ، ولكن متكلمي العصر العباسي رأوا أن تدوين هذا العلم ليس أكثر من تطبيق المعقولات الإسلامية على المعقولات الفلسفية البشرية .

---

[1] ألقى الأستاذ وحيد الدين خان هذه الكلمة بالجامعة الملّية الإسلامية، بدلهي، في 27 ديسمبر 1976، خلال ندوة دراسات حول "قضية تجديد الفكر الإسلامي". وهذا البحث ملحق بكتيب المؤلف "نحو تدوين تجديد للعلوم الإسلامية" {بيروت، دار النفائس، 1978}. وللمؤلف محاولات رائدة لوضع علم الكلام الإسلامي الجديد القائم على معاير العصر، مثل "الأسلام يتحدى" و "الدين في مواجهة العلم" وغيرهما من الكتب {المترجم}.

وهذا هو الخطاء الذي قسّم علم الكلام إلى قديم وجديد ، لأن المعقولات الفلسفية البشرية كانت قياسية ، ومن ثمّ كانت متغيرة بتغير الزمن ، بينما لا يطرأ أي تغير على المعقولات القرآنية والكونية. إن أسلوب الأستدلال القرآني هو أسلوب كوني طبيعي . فالقرآن يستدل على الوقائع غير المحسوسة بالوقائع المحسوسة . وأساس علم الكلام القرآني يقوم على القوانين الأرضية والسماوية الثابتة التي لا تتغير ، ولذلك فإن علم الكلام القرآني ثابت لا يتغير . ومن الصحيح القول بأن علم الكلام القرآني ، مثل العقائد القرأنية ثابت لا يتغير . ولكن حين دون علم الكلام على أساس العلوم البشرية أصبح عرضة للقدم والجدّة ، لأن هذه العلوم كانت مبنية على القياس ، وبالتالي متغيرة .

والآن في النصف الأخير من القرن العشرين ، أصبحنا إلى حد كبير قادرين على تدوين علم الكلام بصورة قطعية وآفاقية . إن عالَم الطبيعة وعلم الطبيعة كانا شيئين مختلفين في الزمن القديم . فعالَم الطبيعة كان يقوم على الحقائق بينما كان أساس علم الطبيعة هو القياس . والآن اجتمع عالم الطبيعة وعلم الطبيعة على صعيد واحد ، وهكذا كان القرآن و علم الكلام القديم شيئين متغايرين . فبينما كان القرآن يحتوي على الآيات المحكمات كان علم الكلام مبنيا على قياسات الفلاسفة . إن تطور العلم مكّننا اليوم من وضع علم كلام متناسق مع القرآن . وإذا كان هناك من شئ يسمى بعلم الكلام الجديد فهو هذا العلم الذي لم يدوَّن بعد بالرغم

من توافر المواد وشدة حاجتنا إليه لسدّ الفراغ الفكري الذي يعاني منه المسلمون بصفة عامة ، وغير المسلمين بصفة خاصة .

وسأذكر لكم بعض الواجبات المطلوبة منا لتدوين علم الكلام الجديد:

1 – إن أول عمل مطلوب منا هو صياغة نظرية علمية قائمة على أسس قرآنية ، وأعني نظرية الأسلوب الأستدلالي . فالقياس كان يقوم في الزمن القديم على المفروضات والمسلّمات . وفي المراحل الأولى من ظهور الأساليب الحديثة للتحقيق والتجربة أكدوا على أهمية (المشاهدة) . ولكن العصر العلمي الذي بدأ في أعقاب أنشتين قد أوضح بجلاء أن الحقيقة في آخر صورها لا تخضع للمشاهدة البشرية . وقد أصبح من المسّلم الآن أن الإنسان غير قادر على الأستدلال بالمشاهدة بكفايته ووسائله المحدودة ، وأن الإنسان لا يقدر إلا على الاستدلال الاستنباطي . فنحن لا نستطيع أن نشاهد الحقائق ، بل جلّ ما نستطيعه هو استنباط الحقائق الكامنة بدراسة ومشاهدة الأشياء الظاهرة .

إن نظرية علمية جديدة قد ظهرت الآن ، وهي تطابق النظرية العلمية القرآنية . فالقرآن أخبرنا بأن الإنسان لا يتمتع إلاّ "بالعلم القليل" {وما أوتيتم من العلم إلا قليل} [الإسراء 85] ، ولذلك عليه أن يقنع بالعلم غير المباشر بدلا من أن يصّر على العلم المباشر . وهكذا تلاقى العلم البشري بالوحي . وهذه النظرية العلمية الحديثة قد أثبتت ، تلقائيا ، أن أسلوب الاستدلال القرآني هو الاستدلال

العلمي عينه . وأول خطوة لوضع علم الكلام ، على المستوى العصر الحاضر ، هي تدوين هذا الاكتشاف الجديد .

2 – والعمل الثاني المطلوب منا هو تدوين علم الآثار القرآني . فالقرآن يشير إلى الأنبياء والحضارات القديمة . وهذا الجزء من القرآن يسمى "بأيام الله" {وذكرهم بأيام الله} [إبراهيم 5] .

وهذه الأحداث التاريخية جدّ هامة من وجهة نظر القرآن . فهذه الأحداث والوقائع التاريخية تثبت أن للكون إلها أرسل رسله في كل العصور وهو الذي يحدد مصير الشعوب وأقدار الحضارات بناء على قوانينه وسننه الثابتة . إن هذا الموضوع يتعلق بالتاريخ ، ولكن القرآن لا يتناوله بالأسلوب التاريخي المعهود ، بل يتناوله بأسلوب إجمالي لأغراض الدعوة و الإنذار و التبشير . والمعلومات التاريخية التي لم ترد في القرآن كانت مجهولة في الزمن القديم ، إلى حد كبير . ولذلك لم يكن في وسع مؤريخينا القدامى أن يسجلها بأسلوب التدوين التأريخي السليم .. والآن قد اكتشفنا سجلات ووثائق كثيرة عن تلك الأحداث ، بدراسة الآثار ونتائج الحفريات ، وأصبح ممكنا اليوم شرح الإشارات القرآنية حول أيام الله وتوثيقها تأريخيا ، وبتالي تدوين الدعوة القرآنية بلغة التاريخ .

3 – والعمل الثالث المطلوب هو تدوين "آيات الآفاق" {سنريهم آياتنا في الآفاق} [فصلت 53] باستغلال الأكتشافات العلمية الجديدة . فالقرآن يشير مرة بعد أخرى إلى آيات الكون التي تشير إلى خالقها وتوضح حكمة الله وراء خلق العلم . والقرآن يستخدم هذه الآيات

الكونية لتوثيق دعوته ، إلا أن هذه الإشارات إجمالية . والحكمة في إجمالها هي أن الإنسان القديم لم يكن يعرف كثيرا عنها ، ولذلك لم يكن ليفهمها لو فصّلت له ، ولكان قد دخل في متاهات تبعده عن الهدف الحقيقي للوحي ، ألا وهو هداية البشر وإنذاره من يوم الحساب القادم . والآن قد تجمعت لدينا مواد مفصلة عن تلك الأشارات القرآنية ، بفضل تطور العلوم الطبيعية . وليس من باب المبالغة أن أقول إن العلوم الطبيعية الحديثة قد أصبحت علم الكلام الإسلامي . ولم يبقى علينا إلا تدوينها . والحاجة تقتضي تدوين آيات الله الكامنة في خلقه وكونه ، بإستخدام الإكتشافات العلمية الحديثة .

4 - إن عنصرا من عناصر أسلوب الإستدلال القرآني هو ما يسميه {وفي أنفسهم} [فصلت 53] ، أي آيات الله الكامنة في النفس البشرية . وهذا الجانب كان مجهولا إلى حد كبير في قديم الزمن . وقد كتب الصوفية كثيرا في هذا الجانب ولكن إعتمدوا على القياس أكثر مما إعتمدوا على الحقائق العلمية . والجزء الأكبر من كتاباتهم فقد مغزاه الآن . أما أبحاث علم النفس الحديث فقد وفّرت لنا معلومات كثيرة تساعدنا على تفصيل إشارات القرآن إلى حد كبير . ولو أنجز هذا العمل على المستوى العلمي العصري لأصبح تصديقا نفسيا عظيما لحقائق القرآن .

5 – ثم هناك مجال العلوم الاجتماعية ، أي القانون والسياسة والاقتصاد وغيرها من العلوم التي كتب حولها الكثير في الزمن

الحديث . إن ذخيرة العلوم الاجتماعية مفيدة من جوانب عديدة ، ولكنني من الناحية المبدئية لا أؤيد إدخال العلوم الاجتماعية إلى دائرة علم الكلام . والسبب في هذا هو نوعية العلوم الاجتماعية ، فهي كلها علوم قياسية وأغلب الظن أنها ستظل قياسية . فلو استخدمناها في علم الكلام لارتكبنا مرة أخرى ، ذات الخطأ الذي ارتكبه متكلمو العصر العباسي الذين أسسوا علم الكلام على القياسات الفلسفية السائدة حينذاك ، بينما نحن سندون علم الكلام على القياسات الاجتماعية .. ولذلك أرى أن تدخل العلوم الاجتماعية في دائرة اختصاص الفقه وليس في دائرة علم الكلام ، وبكلمة أخرى ينبغي تدوين الاجتماعيات كنظام فقهي بدلا من تأسيس المعقولات الإسلامية عليها .

6 – وأخيرا ، أريد أن أذكر عملا علميا مطلوبا لا يعد عموما من علم الكلام ، ولكنه الجزء الأكبر من علم الكلام من حيث الأهداف . وهذا العمل هو إعداد كتب للتعريف بالإسلام بأسلوب علمي . إن كتبا كثيرة قد ألفت في العصر الحديث حول الإسلام ، ولكن الأسلوب الكلامي – بدلا من الأسلوب العلمي – يغلب على هذه الكتب .

ولذلك يمكن وضع كل الكتب الإسلامية الحديثة ، من تفسير وسيرة نبوية وغيرها من الكتب العامة ، في صف علم الكلام (القديم) .

فبغض النظر عن أهمية هذه الكتب ، لا ينبغي أن تصبح الكتب الإسلامية العامة من تفسير وسيرة ، خاضعة لعلم كلام يتغير من عصر إلى أخر .

إن العصر الحديث يمتاز بحرية الرأي والفكر . والإنسان الحديث يريد إن تقدم له المعلومات بدون إضافات تفسيرية وكلامية ويترك له التقييم . وهذا هو السبب في الطلب المتزايد على الكتب الإسلامية الجديدة بالرغم من إصابة المكتبة الإسلامية بالتخمة . إن إنسان العصر يريد أن يفهم الإسلام ولكنه يطلب الكتب التي تعرض حقائق الإسلام بالأسلوب العلمي . إن إنسان العصر الحاضر يفضل الأسلوب العلمي على الأسلوب العقلي والفكري في مخاطبة القراء ، ولكن لسوء الحظ ، فان الأسلوب العلمي لم يلق الرواج بعد ، في لغة ما من لغات المسلمين . إن الأسلوب العلمي على عكس الأسلوب الكلامي ، يعتمد على البساطة والايجابية التي تراعى سرد الحقائق لغة وبيانا .

إن مؤلفينا قد سطروا ما لا يحصى من الكتب في العصر الحاضر ، ولكنني لا أزال أجهل وجود مجموعة كتب إسلامية ، في أية لغة من اللغات ، تعرض تعاليم الإسلام وسيرة النبي ، بالأسلوب البسيط الايجابي الواقعي . هذا بالرغم من شدة احتياجنا إلى هذا النوع من الكتب أكثر من أي شيء آخر اليوم . وأتجرأ أن أقول : إننا إن لم نفعل أي شيء سوى تدوين تعاليم القرآن والسيرة والأحاديث وأحوال الصحابة وتاريخ الإسلام (بدلا من تاريخ الفتوحات) بأسلوب علمي واقعي ، ونشرنا هذه الكتب بمختلف لغات العالم ، فسنكون قد حققنا هدف علم الكلام فيما يتعلق بالعصر الحاضر على الأقل .

نحو تدوين جديد للعلوم الإسلامية[1]

كان عقبة بن نافع التابعي (م 63 هـ) قائد الجيوش الإسلامية في افريقية في عهد يزيد بن معاوية . ووصل عقبة ، وهو يفتح بلاد شمالي افريقية ، إلى شواطئ المحيط الأطلسي . وكانت مدينة أسفى آخر نقطة وصل إليها ، وهناك دخل بفرسه إلى مياه البحر وقال عبارته المشهورة : "اللهم ! لو أعلم وراء هذا البحر بلدا لخضته إليه ، حتى لا يعبد أحد دونك" .

إن الذين آمنوا بالقرآن في عصر الإسلام الأول واكتسبوا تربيتهم من رسول الله مباشرة ، كانوا يتدفقون حماسةً لإبلاغ رسالة الله إلى كل البشر . وكانت عواطفهم لا تهدأ إلا حين يصبح كل البشر عباداً لله . ودارس التاريخ الإسلامي في العصور التالية يرى ، بدَهَش أن هذه العاطفة قد خبت وتلاشت بمرور الأيام . وحين تعرض المسلمون للانهيار السياسي في القرون الأخيرة قامت لدينا حركات عظيمة الشأن لاستعادة السيادة والمجد الغابر ، ولكن لم تظهر حركة جديرة بالذكر لأجل الدعوة إلى الله وإبلاغ الرسالة .

إن القرآن الذي كان يقرأه الصحابة والتابعون ، هو القرآن ذاته الذي قرأته أجيالنا التالية فما السبب أن القرآن الذي ألهب همم

---

[1] هذا البحث مترجم عن مجلة "الرسالة" عدد سبتمبر 1977. وقد سبق نشره في كتيب ضمن سلسلة "نحو وعي إسلامي" ، رقم 10 (القاهرة، دار المختار الإسلامي، 1978) و "الإسلام و العصر الحديث" رقم 2 (بيروت ، دار النفائس ، 1978) .

الأوائل للدعوة إلى رسالة الله لم يحثّ الأواخر على القيام بمسؤوليات الدعوة ؟

ليس من سبب لهذه النتيجة سوى أن القرآن كان مصدر علوم الدين في صدر الإسلام بصورة مباشرة بينما اختفى وجوده في أكوام العلوم التي اخترعتها عقول البشر في العصور التالية .

إن القرآن هو المصدر الذي يحتوي على كل الأمور الأساسية للدين . و المطلوب (تبين)[1] هذه الأمور الأساسية لتبسيط فهمها لعامة الناس . وكانت سيرة الرسول ε نموذج واضح لهذا التبيين ، ولكن تبين القرآن وتفصيله تحول في العصور المتأخرة من أسلوب النبوة البسيط إلى أسلوب فني . وكانت النتيجة أن ظهر إلى الوجود معتقد جديد معقد موازي بدلا من الدين الإسلامي البسيط الفطري ، وقد نسجت عناصر هذا المعتقد الجديد من المصطلحات الفقهية وتقولات المتكلمين ورموز الصوفية . والتابعون الذين اكتسبوا الدين من صحابة الرسول ، اعترضوا بشدة على إلى إحالة الدين إلى "فن" . وكانوا يرون أن هذا العمل ليس باتّباع لسنّة الرسول ، بل هو تقليد بعض أهل الكتاب . ولكن عامة الناس والحكام الفاقدين لكيفيات الدين وجدو أن "الدين الفني" – إن صحة التسمية – يناسب أحوالهم أكثر من أي شيء آخر . ولهذا أخذ هذا الدين الجديد يتطور ويكبر . والتاريخ يخبرنا أن كل بدعة تصبح شيء

[1] { وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون } ـ النحل : 44.

مقدسا بمرور وقت طويل على ابتداعها. وهكذا أخذا الدين الجديد يلبس مسوح القدسية بمرور الزمن ... حتى لم يعد ممكن الآن أن يخيل إلى الإنسان أن هناك أمورا في كتب الفقه لا تطابق روح القرآن والسنة ، أو أن بعض أقوال الصوفية وقصصهم قد تكون خاطئة ، أو أن هناك في (المعقولات) الرائجة ما هو ليس بمعقول . وكان من الطبيعي في مثل هذا الجو ألا يجد القرآن سوى خانة (البركة) ، فأصبح كتاب للتلاوة والحصول على البركات ... ووصل الأمر إلى أن الذين فسّروا القرآن في العصور المتأخرة لم يكونوا يتوخون سوى الحصول على (الثواب) أو أن يثبتوا أن مدرستهم الفقهية أو الصوفية أو الكلامية تطابق القرآن ... إلا ما شاء الله .

إن أكبر ضرر نجم عن الإضافات التي لحقت بالإسلام في صورة الفقه والتصوف وعلم الكلام (القائم على المنطق اليوناني القديم) هو أن الأمة ضلّت عن القرآن . إن هذه الإضافات أحالت الدين الى "فن" . والشيء الذي يبيّنه القرآن بأسلوب بسيط وفطري ، أضيفت إليه تفريعات جديدة لخلق مشكلات ومسائل معقدة ، واخترعوا مصطلحات لا تحصى لشرح هذه المشكلات والقضاية بأسلوب فني . وهكذا تحول الدين الالهي إلى مجموعة من الأحكام والمسائل التي لا تعرف إلا بدراسة الكتب الفنية ، بينما لا يمكن معرفتها بدراسة الكتاب الإلهي .

واليوم لا يجول بخاطر الذي يريد معرفة "مسائل" الصلاة أن يدرس القرآن لهذا الغرض لأنه يعرف أنه سيجد هذه المسائل في

كتب الفقه . والذي يريد تربية روحه لن يتوجه الى كتاب الله ليبحث فيه عن طريق السلوك الروحي ، بل سيقصد أحد "الشيوخ" لأنه يعرف آداب "فن الروحانية" لا تكتسب إلا من أحد خبرائها . وهكذا ، فإن من يريد اليوم إقامت الأدلة العقلية على دعوة الاسلام فهو لن يبحث عنها في القرآن بل سيغوص في بحر المعقولات ، لأنه يعرف أن ضقائق هذا الفن لا توجد الا في كتب المعقولات .

إن الله لم ينزّل القرآن إلا ليهتدى به الناس بتدبره[1] . ولكن بتحويل التعاليم القرآنية الى فن لم يعد القرآن كتاب هداية و تدبر ، بل تحول الى كتاب تلاوة وأصبحت أخر منافعه أن يكمل الانسان تلاوته كل يوم أو كل أسبوع "للبركة" . لقد أخذ الناس يتلقون دينهم من أحبارهم ورهبانهم واعتبروا القرآن شيء للتبرك به فلفّوه في غلاف أنيق من القماش ووضعوه في مكان لائق . وكان هذا طبيعيا لأن معظم التفريعات التي اعتبروها دينا لا توجد في القرآن البتة .

والحرمان من كتاب الله لم يقف عند هذا الحد بل انسحب على حياتنا بأكملها . إن الله تعالى قد فصّل كل شيء في القرآن وهو لذلك غذاء فكري لكل مؤمن . ولكن بسبب التطور الآنف الذكر لم يعد الناس يبحثون في القرآن عن كل قضايا الإسلام والمسلمين.

إنك لو درست القرآن ، بدون خلفيات وأفكار مسبّقة ، فستجد بدون ريبة أن قضية الانسان الكبرى عند الله هي أنه سيقف أمام ربه يوم القيامة للحساب عن أعماله في الدنيا ... والرسالة

---

[1] قال تعالى : {كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكر أولو الألباب} سورة ص آية 29.

الحقيقية الملقاة على عاتق المسلمين هي إعلام كل شعوب الأرض بخطورة هذا اليوم القادم . ولكننا نرى أنه لم تقم حركة تدعو للقيام بهذا الواجب ، بالرغم من نشوء عدد لا يحصى من الحركات الإسلامية في القرون الأخيرة .

إن الذين تصدوا "للبعث الإسلامي" في العصر الحاضر كانوا علماء ، وكانوا يقرؤن القرآن ، بدون شك ، ولكن علوم الفقه والتصوف والكلام هي التي صنعت خلفيتهم الفكرية ، ولهذا انحرفوا عن صراط القرآن المستقيم . فالذين غلب على فكرهم علم الكلام أخذوا يقيمون "المناظرات" والمجادلات لخدمة الدين ، والذين غلب عليهم التصوف أخذوا يجاهدون لمستقبل الأمة بتربية الناس في "التكايا" ، وأما الذين تأثروا بالفقه فأخذوا ينظرون إلى الإسلام "كنظام" لا يمكن تنفيذه إلا بإنشاء "حكومة إلهية" لإجراء القوانين الإسلامية المدنية والجنائية . وتشبّع عامة الناس بهذا الأسلوب الفكري حتى لم يعودوا يتنادون للقيام بأهداف الإسلام الأساسية الحقيقية .

وكانت النتيجة أن لم يبقى لهم سوى عملين لكسب "الثواب" وهما : التبرع لإنشاء المساجد والمدارس الدينية ، وتقديم "الهداية" للمرشدين والشيوخ . وهم لا يكادون يرون أن هناك أعمالا أخرى أهم من هذين العملين ، وللسبب ذاته فلا أمل يذكر في الحصول على تعاون منهم لإنجازها .

إن إنساناً ما متحرراً من الخلفيات المسّبقة ، لو ألقى نظرة على مكتبتنا الإسلامية فسيشاهد فرقا مدهشا فيها ، ألا وهو

الفرق الشاسع الكبير بين الدين المنزّل والدين المدوّن ، الذي ترعرع في العصور المتأخرة . إن دين الله بسيط وفطري في كتابه وسنة رسوله ، وهو يلهب الفؤاد ويصقل العقل . ولكن العلوم الإسلامية المدوّنة في الكتب البشرية لا تعدو أن تكون أبحاثا جافة .. لا تلهب القلوب .. إن القرآن يحتوي على الفقه ولكنه يختلف عن فقه كنز الدقائق "لأبي البركات النسفي" ، والقرآن يحتوي على الجانب الوجداني ولكنه لا يشبه تصوف ضياء القلوب "للحاج إمداد الله المهاجر المكيّ" ، والقرآن يحتوي كذلك على المعقولات ، ولكن لاعلاقة له بمعقولات الشمس البازغة "للملاّ جيون الجنبوري" .

وهذا لا يعني أن تدوين العلوم الإسلامية كان أمرا غير مطلوب في نفسه . إن تدوينها كان مطلوبا بدون شك . ولكن الاتجاه الذي سار عليه التدوين في القرون المتأخرة لم يكن صحيحا . فقد كان المطلوب تدوين العلوم الإسلامية بالأسلوب التذكري ، وليس بالأسلوب الفني الذي راج بالفعل . إن الله تعالى قد جعل دينه "ميسّرا" لأجل الذكر والنصيحة قال تعالى "ولقد يسرنا القرآن للذكر" [القمر17] ولكننا نحن عقدناه وصعّبناه بمباحثنا وتقولاتنا المعقدة .

إن القرآن هو "الذكر" أي النصيحة قال تعالى "إن هو إلا ذكر وقرآن مبين" [يس 69] و "التدبر" قال تعالى "ليدبروا آياته" [ص 29] و "العلم" قال تعالى "فسوف تعلمون" [الزمر 39] و المطلوب في

القرآن ليس إلا ما يفيد الذكر والنصيحة . ولنا في رسول الله ε أسوة حسنة واضحة حول تفصيل العلوم القرآنية وتوضيحها ، لأنه ε كان مأموراً بذلك من عند الله ، قال تعالى "وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم" [النحل 44] ، وقد قام النبي بعمله هذا على أكمل وجه .

إن هذه الأمور تدلّ على أن تدوين العلوم الإسلامية لا يعني الإضافة الفنية إليها أو اختراع مباحث جديدة فيها استخراجاً ، حتى يصبح القرآن "الذي يقول عنه الإمام الغزالي إنه يحتوي على خمسمائة حكم فقط" عَلَما على مجموعة من خمسمائة ألف حكم. فتدوين العلوم الإسلامية يعني تبينها وتفصيلها لتحتوي على مواد الذكر والنصيحة . والقرآن يأمرنا بالأستمساك بأحكامه ، ويطالبنا بتدبر آياته . أما البحث عن تفصيلات والمعاني في القرآن فهو أمر جدّ مرغوب فيه . ولكن هذا البحث يكون عن مواد الذكر والنصيحة وليس لأجل التحديدات الفنية والتفريعات القانونية .

ولو أرسل سكان قرية ما يسألون دار الإفتاء السؤال التالي : إن الجزء المسقّف من مسجدنا كان يضيق على العدد المتزايد من المصلين ولم يكن توسيع مساحة المسجد نفسه ممكنا فقمنا بتسقيف فناء الجامع كله فهل يمكن استخدام سقف الجامع لأداء الصلاة لضرورات موسمية ؟ ... فسيعمد المفتي من فوره للرد على هذا الإستفتاء كمسألة شرعية ، وسيفتي بأنه يجوز استخدام

السقف لأداء الصلاة بمرعاة كذا وكذا من الشروط . هذا بالرغم من أن تحويل كل أمر إلى "مسألة شرعية" ليس من الإسلام في شيء بل هو أسلوب اليهودية الذي جاء خاتم الأنبياء للقضاء عليه . وفي زمن الرسول والصحابة لم يكن يرد على سؤال من هذا النوع برد محدد بل ربما قيل للسائل : إن الموضوع ليس مسألة شرعية ، وعليه أن يتصرف وفقا لأحواله .. وتوجد في كتب الأحاديث والسير أمثلة كثيرة لتثبيط مثل هذه الأسئلة بدلا من الردّ عليها . أما مفتي اليوم – غالبا - فكل أمر عنده مسألة شرعية وهو يكتشف دائما جزئية في كتب الفقيه للرد ، في ضوئها ، على الوضع الشرعي للمسألة . وكان ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما يقولان : "إن من أفتى الناس في كل ما يسألونه عنه لمجنون"[1] .

وكان القرآن قد خاطب اليهود عن النبي ε قائلا :

"ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم" [الأعراف 157] .

وهذا يعني أن النبي يحرر اليهود من الأعباء والقيود التي فرضها عليهم فقهاؤهم وأحبارهم بتفريعاتهم التشريعية ومبالغتهم في التظاهر بالتقوى ، وأنه يقدم إليهم الدين الإلهي في صورته الحقيقية المجردة من الشوائب . بينما أمة خاتم االنبيين نفسها تئنّ اليوم تحت "الإصر والأغلال" . وقد أضاف الفقهاء والمشايخ إلى الإسلام ما يشبه تلك الإضافات التي قام بها فقهاء اليهود

---

[1] جامع بيان العلم وفضله ، ج 2 ، ص 164.

والفريسيون لتشويه الشريعة الموسوية. وأول واجب لتجديد الإسلام اليوم ، هو تطهيره من كل هذه الإضافات . وبدون القيام بهذا الواجب لا يمكن لنا أن نخطو خطوة واحدة إلى الأمام لإحياء الإسلام في العصر الحديث .

إن إحالة الدين الإلهي إلى "فن" يبدو في ظاهره أمرا جميلا ، أو بريئا على الأقل ، ولكنه أمر شديد الخطورة من حيث نتائجه .. فالدين الفني يوجد القصوة في القلوب ويحرم الإنسان من المشاعر اللطيفة . أما لغة الدين الإلهي في القرآن والسنّة فهي لغة الإنذار والتبشير والتذكير والنصيحة. وكلا الدينين - الإلهي والفني ـ يختلف عن الآخر إختلافا كاملا ، وكلاهما ينشئ نتائج مختلفة تماما . فأسلوب القرآن والسنّة يوجه الإنسان نحو الحقائق والمعاني ، بينما علومنا الفنية تشغلنا في الجزئيات . وأسلوب القرآن والسنّة يعلم الإنسان الفكر والتدبر ، بينما تفتح العلوم الفنية أبواب النقاش والجدال العقيم بدون حدود . وأسلوب القرآن والسنّة يوقظ مشاعر الإنسان حتى تغدو قضية الآخرة أعظم قضية أمامه . بينما العلوم الفنية تشغل الأنسان عن قضايا الحياة الأساسية وتلهيه في التفريعات المنطقية الخرافية . وهكذا فإن هذه العلوم الفنية ، برغم من مظهرها البريء الجائز ، قد أجهزت – من حيث النتيجة – على الهدف الذي من أجله أنزل الله تعالى كتابه وأرسل رسوله .

وليس هناك من سبيل لإصلاح هذا الوضع سوى جعل القرآن والسنّة ، من جديد مصدر حقيقيا يتلقى منه الناس دينَهم . وعلى

سبيل المثال ، فإن القرآن يحتوي على أسس الصلاة ، والمسائل الأخرى الضرورية موجودة في السنّة وأثار الصحابة الكرام . ولذلك يجب ألا يحوي كتاب عن الصلاة إلا ما ورد في هذه المصادر الثلاثة ، ولا يعتبر أي شيء آخر مسألة من مسائل الصلاة ولو من جانب الترجيح والتفضيل ، لأن إختلاف الصحابة حول أمر ما يعني مرونة الدين . ولا يصح أن يقال عن موقف أحدهم أنه صحيح وموقف الآخر خطأ أو أن أحدهم أفضل من الآخر .

إن معظم ما يسمى ب "أمهات الكتب" في مكتبتنا العربية قد صيغ بهذه اللغة الفنية . وفنون الفقه والمعقولات والتصوف تلقي بظلالها على مكتبة العصور الإسلامية المتأخرة ، تماما كما تحيط الهالة بالقمر . وكانت النتيجة أنه بالرغم من بقاء متن الإسلام سليما ، أصبح الإسلام العملي التقليدي مشوبا بالشوائب البشرية التي أصابت الأديان السماوية الأخرى من قبل . ومادامت هذه الكتب هي مصدر الناس لفهم الدين فلن يكون للفكر الديني الصحيح مكان في عقولهم . و لا مناص من اتخاد القرآن والسنّة وآثار الصحابة مصدرا لاكتساب "علم الدين" بدلا من الكتب التي تدرس في معاهدنا وجامعاتنا الإسلامية . والخطوة الأولى لإحياء الإسلام هي تدوين علوم القرآن والسنّة وآثار الصحابة بأسلوب علمي بسيط وترك الأسلوب الفقهي الكلامي الصوفي للتاريخ . فلا يمكن إحياء الإسلام بدون تطهير الدين الإلهي من شوائب البشر .

إن تدوين العلوم الإسلامية ليس عمل شخص أو اثنين . بل لابد له من مجمع يجتمع فيه عدد معقول من رجال العلم الأكفاء القادرين على إجراء البحوث العلمية . ويشترط فيهم أن يكونوا مستوعبين لعلوم القرآن والسنّة . ولو اجتمعت مجموعة من هذا النوع ، وعملت باستقرار ، وتوفرت لها كل الإمكانت الضرورية فإنني أعتقد أنه من الممكن ، إنشاء الله إعداد المكتبة الإسلامية خلال عشر سنوات من الزمن ، تلك المكتبة التي ستكون البنيان الفكري الحقيقي للجهاد الرامي إلى إحياء الإسلام . فإن كانت هذه الأمة تريد أن تعتبر يوم القيامة أمة محمد فواجبها الأول أن تطهر "هدى محمد" من الشوائب البشرية لتقديمه إلى العالم في صورته الخالصة الناصعة . إن هذه الأمة تقترف اليوم جريمة كتمان الحق فعلا ، إن لم تكن إرادةً . وعليها أن تعرف جيدا أن الله لا يقبل من أمة أمينة على رسالته عملا ما إن كانت تكتم الحق .

إن الحكمة تقتضي أن ينجز هذا العمل اجتماعياً بدلا من أن يكون نتاج عمل فردي . فالعلوم التي لها أهمية اجتماعية لابد من أن تدوّن على المستوى الاجتماعي حتى تحصل على المكان اللائق بها لدى الأمة ولتظفر بالقبول لدى الجميع .

وحين دوّن القرآن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، بإشراف الدولة ، أحرقت النسخ الانفرادية الأخرى بسبب هذه الحكمة ، وهي أنه لو دوّن القرآن بجهود انفرادية لتفجر خلاف شديد ما كان ليهدأ قبل يوم القيامة .

ولعل عمر بن عبد العزيز ، أيضا ، وضع مثل هذه الخطة لجمع الأحاديث النبوية ، وتدوينها ، فكتب إلى عامل المدينة محمد بن عمرو ابن حزم وإلى العمال الآخرين بأن يكتبوا كل مايحصلون عليه من حديث الرسول وسنتّه . ولكن هذا العمل لم يتحقق بإشراف الدولة الإسلامية بسبب موته المبكر . ثم أخد بعض الأشخاص يقومون بجهود انفرادية بدافع كسب "الثواب" . لقد كان الأسلوب الأفضل أن يحثّ المحدّثون الخلافاء على إنشاء مؤسسة رسمية لتدوين الحديث ، ثم تجتمع فيها جماعة مختارة من المحدثين لتدوين الأحاديث الصحيحة ، مثلما فعل زيد ابن ثابت الأنصاري وجماعته عند تدوين القرآن ، فتحرق كل الأحاديث الأخرى . ولو تحقق هذا لنجت الأمة من الفتن التي لا تزال تلاحقها .

وتدوين الفقه ، أيضا كان ينبغي أن يتم بالأسوة الصدّيقية بدلاً من إنزواء الفقهاء في مدارس فكرية قسّمت الدين الإلهي الواحد إلى عشرات المذاهب المختلفة . وهكذا فإن الأسلوب الصحيح للقيام بمسئولية تدوين العلوم الإسلامية اليوم هو جمع مجموعة من رجال العلم الأكفاء لتعدّ ، بجهود إجتماعية مشتركة ، مجموعة من الكتب المطلوبة . ولن يمكن تحقيق الهدف المنشود لو أنجز هذا العمل بجهود فردية .

مجموعة الكتب المطلوبة

إن مخطط تدوين العلوم الإسلامية ، لإيجاد مجموعة الكتب التي يمكن تقديمها للتعريف بالإسلام ، يمكن أن يكون على الوجه الآتي .

أ ـ القرآن الكريم :

1 ـ ترجمة معاني القرآن بمختلف اللغات للذين لا يعرفون اللغة العربية .

2 ـ تدوين أحوال الشعوب والأنبياء المذكورين في القرآن بالأسلوب التاريخي الحديث باستخدام المعلومات القديمة وكشوف الحفريات .

3 ـ شرح الإشارات القرآنية حول آيات الكون ، باستخدام تفاصيل العلوم الحديثة .

4 ـ تدوين تعاليم القرآن في صورة أبواب حسب الموضوعات .

ب ـ الأحاديث :

جمع الأحاديث القوية الإسناد ، بعد استبعاد الروايات الضعيفة والموضوعة ، في مجموعات مختلفة مثل :

5 ـ الروايات التفسيرية .

6 ـ الروايات التاريخية .

7 ـ روايات الأحكام .

8 ـ الروايات التذكيرية .

ج ـ السيرة :

9 ـ تاريخ نبي الإسلام الشامل بأسلوب تاريخي بسيط ، بحيث لا يقتصر على ذكر الغزوات ....

10 ـ تاريخ الصحابة الشامل ، بحيث لا يقتصر على الغزوات والحروب.

11 ـ تاريخ الإسلام الكامل وليس تاريخ الفتوحات فقط .

د ـ الكتب المساعدة :

12 ـ الصحف السماوية ـ تاريخها والتعريف بها .

13 ـ أعلام الإسلام [معجم لأهم شخصيات التاريخ الإسلامي] .

14 ـ قاموس الإسلام [دائرة معارف إسلامية مختصرة] .

15 ـ معجم الحديث [فهرسة شاملة للأحاديث في المجموعات الآنفة الذكر] .

16 ـ تاريخ الدعوة الإسلامية (كتاب أكثر شمولا على غرار كتاب البروفسور آرنولد "الدعوة إلى الإسلام"[1] [Preaching of Islam]).

---

[1] هذا الكتاب مترجم إلى العربية بعنوان الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ـ المترجم.

الجهود الإصلاحية والتجديدية[1]

بدأت قضية العصر الحديث والإسلام في القرن السادس عشر حين تمكن البرتغاليون من اكتشاف الطريق البحري المؤدي إلى الهند ، فسيطروا على بحيرة العرب والمحيط الهندي فعرقلوا تجارة العرب مع شرق آسيا . وكان اختراع المحرك الدخاني في القرن السابع عشر ، وظهور العلوم الطبيعية الحديثة في القرن الثامن عشر بمثابة إضافات جديدة لقوة أوربا . وقد وصلت غلبة الغرب على الشرق إلى أوجها حين شقّت قناة السويس سنة 1869 ففتحت طريقا مباشرا بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر . وكان المسلمون غافلين عن الغلبة الأوربية طالما لم تجاوز السيطرة على المراكز والأسواق التجارية . ولم ينتبه زعماء الإسلام إلا حين أكمل الأوربيون سيطرتهم الاقتصادية بالغلبة السياسية على العالم الإسلامي .

ثم بدأت حركات متنوعة تظهر في العالم الإسلامي منذ أواخر القرن التاسع عشر . ولكننا نجد أن جميع الحركات الإسلامية التي قامت خلال هذه المدة لم تقم إلا بدوافع الانفعال . ولا توجد بينها حركة واحدة تولدت بدافع إيجابي . إن تدخل القوى الأجنبية

---

[1] ألقى الأستاذ وحيد الدين خان هذه المحاضرة ضمن ندوة "الإسلام في عالم متغير" بجامعة عليكرة الإسلامية ، بالهند ، في 25 يناير 1977 . وقد سبق نشر هذه المحاضرة في كتاب المؤلف "المسلمون بين الماضي والحاضر والمستقبل" (القاهرة ، دار المختار الإسلامي ، 1978، ص 45 ـ 55) ـ المترجم.

في المجتمع المسلم أوجد مشكلات وقضايا متعددة ، و كرد فعل على هذا الوضع قام بعض الناس بنشاط حركي إسلامي كان ـ كما ذكرنا ـ نتيجة أحوال خارجية وليس نتيجة الفكر الإيجابي النابع من التعاليم الإسلامية وتدبر للسيرة النبوية .

و هذه الحركات الانفعالية ذات اتجاهات شتى ، ويمكننا أن ندرسها تحت عناوين أربعة :

1 ـ حركات المواجهة .

2 ـ حركات المحافظة .

3 ـ حركات الإحياء .

4 ـ حركات التعمير .

فأما **حركات المواجهة** فقد ظهرت في صورة حركات التحرير السياسية . وقد ظهر بيننا عدد لا يحصى من القادة السياسيين الذين نهجوا الطريق ، ابتداء من السيد جمال الدين الأفغاني (1838ـ1897) إلى أبي الكلام آزاد (1888ـ1958) . وقد ملأ هؤلاء بخطبهم ومقالاتهم العالم الإسلامي كله حماسا ونشاطا . وكان الأفغاني ينادي ب "مصر للمصريين" ورفع سليمان الباروني إبان الاحتلال الإيطالي لليبيا شعار "موتوا اليوم أعزّاء قبل أن تموتوا غدا أذلاء" .

إن كل القادة السياسيين رفعوا هتافات مماثلة وقد ضحى الملايين بحياتهم للنجاة من الغلبة الأجنبية وتكبدوا في ذلك خسائر لا تحصى .

ويصح القول اليوم إن هذا الكفاح قد وصل إلى هدفه المنشود في معظم البلاد ، و إن كانت الحقيقة هي أن الذي تسبب في انتصار حركات التحرير هو تطاحن القوى الاستعمارية الغربية فيما بينها والذي وصل إلى ذروته في الحربين العالميتين الأولى والثانية .

و لكن انتصار حركات التحرير لم يحقق الآمال التي ضحى بحياتهم من أجلها المليون شهيد من الجزائريين والمئتا ألف من الهنود . إن شعوب الغرب لا تزال تهيمن على الشعوب الإسلامية . والتغير الوحيد الذي طرأ هو أن هيمنة الغرب علينا صناعية و اقتصادية اليوم بينما كانت سياسية وعسكرية بالأمس . إن الهيمنة الغربية الجديدة شديدة وصارخة لدرجة أنه لا يمكن وصف سياسات الدول الإسلامية بأنها سياسات مستقلة في حقيقة الأمر . إن الدول الإسلامية تدافع عن نفسها بشراء الأسلحة من ذات الدول الغربية التي تقدم لها المساعدات الفنية لإدارة المجالات التمدنية . إن مؤثرات الغرب قوية، فهو قادر متى شاء على تصفية أحمدو بلّو (1966) ، وعلى تدمير الحركة الفلسطينية على أيدي الأردن (1971) و سوريا (1976) ، وعلى إفشال ثورة إيران الشعبية (1951) أو على دفع مصر للمصالحة مع العدو الذي قال عنه جمال عبد الناصر متباهيا : "نحن أبناء الفراعنة ، سنرميكم بالبحر" .

و **حركات المحافظة** اتجهت عموما إلى توسيع نطاق التعليم الديني . وكان العلامة شبلي النعماني (1857ـ1914) قد قال : "إن نهضة الشعوب الأخرى هي أن تتقدم إلى الأمام ، أما نهضتنا فهي أن نعود إلى الوراء حتى ننضم إلى عصر النبوة"[1] .. وطبقا لهذا أقيمت معاهد ومدارس دينية ، لا تحصى ، في كل البلدان الإسلامية . و كانت هذه المعاهد تهدف إلى تعليم الأجيال المسلمة اللغة العربية والعلوم الإسلامية لتنضم ، من الناحية الفكرية على الأقل ، إلى العصر النبوي وكان مؤسسو هذه المعاهد يأملون أن يتمكن الخريجون فيها من وقاية أنفسهم من مؤثرات الزمن .

ونجحت هذه الحركة تماما في إنشاء شبكة من المدارس الدينية في كل أنحاء العالم الإسلامي .. فلم تبق منطقة ما تخلو من خريجي هذه المدارس . و لكن نجاح هذه المدارس مشكوك فيه فيما يتعلق بتربية العقل و الفكر الإسلامي . فأما الذين توظفوا في مدارسهم ذاتها أو في مؤسسات مماثلة فأبقوا على مظهرهم الذي ورثوه عن المدرسة ، لأن ذلك المظهر كان رأسمالهم لإحراز التقدم في بيئتهم . وأما الذين خرجوا عن إطار المؤسسات الدينية فلم يكونوا مختلفين في شئ عن خريجي المدارس الأخرى . وظل التقدم الوظيفي هو هدف حياة أولئك وهؤلاء ، على حد سواء .

---

[1] يقصد العلامة شبلي .. الرجوع في القيم و الأخلاق وفقه القرآن والسنة .. وليس في الوسائل والعلوم المادية.

ولهذه النتيجة سببان رئيسان :

أولهما : أن قادة التعليم الديني لم يفهموا جيدا أن قضية التعليم الديني لا تنحصر في تدريس اللغة الإسلامية والتعاليم الدينية ، بل هي إعطاء الإسلام المكانة اللائقة به في الفكر العصري . إن الجيل الذي تربى في المدارس الدينية كان يتقن العلوم الإسلامية التقليدية ، بدون شك ، و لكن الإسلام لم يكن جزءا أصيلا وحقيقيا من عقله ووجدانه ، لأن هذا الجيل يرى أن الإسلام دون مستوى الفكر العصري الرائج . إن الإسلام الذي درسه هذا الجيل لم يكن أكثر من ملحق وهامش بدلا من أن يكون هو غذاءه الفكري . و الواضح أن ملحقا فكريا من هذا النوع لا يلبث أن يجرفه طوفان الأفكار العالمية .

وثانيهما : أن التغيرات الحديثة قطعت ارتباط التعليم الديني بالاقتصاد . ومن الحقائق التاريخية أن نظاما تعليميا محروما من الأساس الاقتصادي لن يحرز مكانة تذكر في نظام الحياة .

وأقصد بحركات (**الإحياء**) ـ وهي الطريق الثالث ـ تلك التي قامت لإقامة النظام الإسلامي . وقالت هذه الحركات إن السبب في جميع المشكلات التي يواجهها المسلمون في العصر الحاضر هو أن الحكومة الإسلامية غير قائمة على وجه الأرض ، فلو تمكّنّا من تنظيم المجتمع الإسلامي على أساس الشريعة لحلّت جميع مشكلتنا و لأحرز المسلمون على المستوى الدولي ذات المكانة التي كانوا يحتلونها في الماضي لألف سنة منذ ظهور الإسلام .

وقد شرحت هذه الحركات التعاليم الإسلامية بمصطلحات سياسية . الأمر الذي استقبله كثير من المسلمين الحائرين في النصف الأول من القرن الحاضر كأفضل قصيدة عصرية لصالح الإسلام ، فتجمعوا بسهولة في المخيم الإسلامي بعكاظ السياسة . ولكن هذه السوق لم تدم طويلا . فبما أن فكر هذه الحركات كان قائماً على الشرح السياسي للإسلام ، فسرعان ما صطدمت بالحكومات اللاإسلامية في بلدانها . وكان هذا الاصطدام كاصطدام البطيخ بالسكين . وكان أحد الرؤساء العرب ، حين استخلص لنفسه الحكم ، قد هدد أعداءه السياسيين بأنه "سيفرم" وسيسحق كل الذين يعارضونه . ولا شك أن أكثر حكام المسلمين هم من هذا النموذج . وقد كانت نوايا هؤلاء الحكام المسلمين أكثر تحققا في حق الحركات الداعية إلى إقامة النظام الإسلامي . إن الحكام المسلمين قد سحقوا هذه الجماعات في كل بلد بحيث يبدو أنه لا يوجد لها مستقبل مرموق في بلد ما ، إلا أن تتدخل مشيئة الله سبحانه و تعالى .

إن فشل الحركات الداعية إلى النظام الإسلامي لا يعزى إلى "إجرامية" أندادها السياسيين وحدهم . فزعماء هذه الحركات يتحملون جزءا من المسئولية ، لأنهم آمنوا بفكرة خاطئة تماما ، وهي أنهم قادرون على إنشاء حكومة إسلامية بفضل أصوات الناخبين المسلمين في بلادهم . لقد نسو الحقيقة التاريخية القائلة بأن الحكومات دائما تقوم وتبقى للأفكار السائدة في عصرها.

إن بنيان العصر الفكري قائم على أسس علمانية . ولذلك لا يمكن إنشاء جزيرة إسلامية دون تحطيم حواجز الفكر العصري.

أما **حركات التعمير** فأقصد بها تلك المدرسة الفكرية التي تقول بتجنب الاصطدام المباشر مع السلطات السياسية ، لاستمرار العمل في المجالات الأخرى .

ولسوء الحظ ، فإن هذا الفكر قلما استقطب المسلمين في العصر الحديث .

يقول الشيخ محمد عبده : إنه خلال إقامته بباريس (1884) قال لأستاذه (الأفغاني) ذات مرة : إن اصطدامنا السياسي مع الإنجليز والفرنسيين ليس ذا فائدة تذكر ، بينما مجال الدعوة إلى دين الله مفتوح في أوروبا و أمريكا ، فلم لا نبتعد عن السياسة وننشغل بالدعوة والتعليم ..؟ فاحتقر الأفغاني ، بطبيعته الثورية ، هذا الأقتراح و أجاب : "إنما أنت مثبط" . وباستعراضنا للحركات الإسلامية لا نجد حركة ـ جديرة بالذكر ـ قامت في العصور الأخيرة ، و ركزت على أسلوب التعمير والبناء . وقد ظل الزعماء المسلمون يضحون بأنفسهم لأجل أفكار رومانسية على حد قول شاعر فارسي : "إن الزمن لا يتواءم معك وأنت في خصام مستمر مع الزمن" إن أحدا من الزعماء المسلمين لم ينتبه إلى الفكر الإيجابي الذي عبر عنه الشاعر الهندي المظلوم "حالي" (1837ـ1914) في بيت شعر له يقول : "اتجه أنت في اتجاه الريح" !

إن هناك مثالين فريدين في الهند سلكا هذا الاتجاه ، وصاحباهما من الشخصيات السيئة السمعة ، و أنا أقصد سيد أحمد خان (1817ـ1898) وميرزا غلام أحمد القادياني[1] (1840ـ1908) (قبل أن يصل مرحلة الردّة والعمالة للكفر) .

و كان الأول يقول إن الحكومة الإنجليزية قد سدّت علينا أبواب العمل السياسي ، ولكن كل أبواب التعمير والبناء الأخرى مفتوحة أمامنا . وكان يقول إننا نستطيع أن نتقدم بدون عوائق في مجال التعليم و الاقتصاد اللذين يعتبران أساس كل المجلات الأخرى .

أما ميرزا غلام أحمد القادياني فبحث عن هذا الإمكان في ميدان آخر ، وهو ميدان الدعوة . و كان القادياني يرى أن مجال العمل مفتوح للمسلمين بالدعوة داخل الطوائف المختلفة بالبلاد ، بل و داخل الشعب الحاكم نفسه .. و هذا لأن الدعوة أهم هدف من الأهداف في الإسلام ، و من نتائجها الطبيعية الغلبة التي نفشل في التوصل إليها بجهودنا السياسية وحدها .

و لكن لم تتمكن الحركتان من استقطاب عامة المسلمين . و كان هذا لسببين فأولا : كانت عقول الزعماء والعامة قد تبلدت بسبب الانغماس في الأفكار المعادية للاستعمار ، و لم يعد ممكنا أن يفكروا بأسلوب آخر . وكل من لا ينادي بالمواجهه السياسية مع الاستعمار ، كان عميلا في نظرهم . و وصل الأمر إلى أن زعماءنا

---

[1] لا خلاف حول ضلالة القدياني وكفره عقب إدعائه النبوة ، والذي يشير إليه المؤلف هو أن هذا الشخص كان داعيا ومناظراً يدافع عن الإسلام في بداية بروزه إلى أن كفر ـ المترجم.

وجدوا أن كتاب آرنولد (الأستاذ السابق بجامعة عليكرة الإسلامية) "الدعوة إلى الإسلام" (Preaching of Islam) قد ألف لأهداف استعمارية ، لأن الكتاب أثبت أن الإسلام انتشر بالدعوة السلمية بدلا من السيف !!

والسبب الثاني هو أن زعمى الحركتين فشلا في تقديم فكرهما بالأسلوب الصحيح . فارتكب سيد أحمد خان حماقة تطبيق أفكار القرن التاسع عشر على القرآن . ويكفي لإثبات صدق نيته أنه أعلن أن مجلته "تهذيب الأخلاق" تمثل فكره وحده دون كلية علكرة الإسلامية . ولكن هذا الفصل لم يكن ناجحا ـ عمليا ـ فأصبحت دعوته مشبوهة في أعين الناس ، لأنها قامت على استدلال غير صحيح لإثبات قضية صحيحة .

و ارتكب القادياني أيضا خطأ مماثلا ، فحين بدأ عمله كان سائر الزعماء المسلمين منشغلين بالجهاد ضد الإنجليز ، وشعر المجاهدون المتحمسون بأن القادياني يريد صرف المسلمين عن جبهة الجهاد المقدس . ورد القادياني قائلا : إن الجهاد القتالي ليس حكما شرعيا دائما وثابتا ، فأفتى العلماء بأن القادياني عميل للإنجليز .. وهنا خطا القادياني خطوة أخرى تأكيدا على كلامه فزعم أنه يتلقي الوحي وأنه لا يقول شيئا إلا بأمر من السماء . إن هذا الإدعاء الضال ، مع كل أخطائه ، لم يكن فريداً في الزمن القديم . فكثيرون من أسلافنا ، وعلى سبيل المثال شاه ولي الله الدهلوي (1703ـ1762) يستخدم عبارات مماثلة كقوله : "ألهمني ربي" . ولكن

خطأ القادياني زاد شناعة حين ادعى بصراحة أنه رسول الله ، الأمر الذي أجمعت الأمة على كفر قائله بعد ختم النبوة ـ وهو اجماع صحيح وفي موضعه ـ !!

ونتج عن هذا أن الحوار الذي كان ينبغي أن يجري بين الطرفين حول "تخطيط العمل الإسلامي في الظروف الراهنة" تركز على تفسير جديد للقرآن و على ادعاء نبوة جديدة بعد النبوة المحمدية . و إن كان معارضو سيد أحمد خان و ميرزا غلام أحمد القادياني مخطئين في بداية الأمر ، فإن السيد أحمد و المتنبي القادياني ارتكبا أخطاء أشنع ، في نهاية الأمر ، و لم تظفر الأمة بشئ سوى فتاوى الكفر والفسق ...

الخطوة الأولى : جامعة إسلامية

كتب السير كيث (1866ـ1955) في كتابه "نظرية جديدة حول الارتقاء البشري" في معرض دراسته لتاريخ مصر القديمة : "إن السيف لم يفتح المصريين ، بل القرآن هو الذي فتح قلوبهم"[1] إن هذه القوة الفكرية التي اعترف بها هذا المؤرخ الإنجليزي هي التي فتحت قلوب كل الشعوب الإسلامية الأخرى التي تعيش فيما نطلق عليه "العالم الإسلامي" في آسيا و أفريقيا . فكيف حدث أن هذه الشعوب نبذت أديانها القديمة ، بل ولغاتها المحلية في كثير من الأحيان ، ودخلت دائرة الأخوة الإسلامية ؟ و لعل الرد على هذا السؤال هو أن المدارس والمعاهد الإسلامية التي أنشأها العرب المسلمون عقب فتح هذه البلاد الجديدة هي التي قامت بالدور الأكبر في استقطاب عقول هذه الشعوب .. وكانت هذه المدارس والمعاهد تدرس اللغة العربية والقرآن الكريم و الأحاديث النبوية الشريفة . وكان المتخرجون في هذه المؤسسات التعليمية يعودون إلى مناطقهم فيؤسسون هناك مدارس جديد على غرار المدارس التي درسوا بها . إن عمل الدعوة القائم على المدارس الدينية هو الذي أحدث التغيير الكبير في الخريطة الدينية و الحضارية و اللغوية لجزء كبير من العالم خلال قرن من الزمان .

[1] Sir Arthur Keith, A new theory of human evolution, London, Watts & Co., 1950, p 303.

والقرآن معجزة دائمة . لقد تحدث خالق الكون إلى عباده عبر هذا الكتاب . فهو حلقة الاتصال بين الرب و عبده في هذا العالم. إنه يلهب القلوب ويحيي المشاعر . إن مضامينه العليا وأدبه السماوي يجبران كل من يقرؤه بتدبر على قبول صدقه .

وحياة الرسول الكريم و أصحابه من الوقائع المدهشة في تاريخ البشرية. وهذه الوقائع تتمتع بخاصية قصوى لإحداث التغيير في حياة البشر . و كانت مدارس القرون الأولى تحدث هذا التغيير عبر التركيز على تدريس القرآن الكريم و سنة النبي الكريم و أصحابه . فهذه المدارس كانت تعلم الدارسين اللغة العربية بأسلوب بسيط ثم تتركهم ينهلون من منابع القرآن الكريم و السنة النبوية ، خزائن الإيمان و حرارة القلوب . فكان العلم الديني لدى المتخرجين في هذه المدارس بمثابة صحبة الرسول الكريم و أصحابه الكرام . فكان كتاب الله يوقظ فطرتهم وكانت سنة الرسول الكريم وحياة صحابته تملأ قلوبهم بالحرارة التي تدفعهم نحو العمل و الانطلاق لنشر الدين الإلهي . وهكذا كان يظهر إلى الوجود جيش من البشر لا يعرف سوى العيش لله والموت لله ..

أما اليوم فلدينا من المدارس و المعاهد الدينية و الجامعات الإسلامية ما هو أكثر من أي وقت مضى على هذه الأمة . ولكن هذه المؤسسات العلمية عقمت عن تخريج أمثال الذين كانوا يتخرجون في مؤسسات القرون الأولى من تاريخنا . والسبب في هذا هو أن هيكل مدارسنا العصرية يختلف تماما عن مدارس

الصحابة والتابعين ومن تبعهم من العلماء . إن مدارس العصر الحديث حولت تعليم الدين إلى فن تعليمي بينما نزل القرآن ليبعث الروعة و الخوف في قلوب سامعيه وقارئيه ولكي تتزلزل قلوبهم من خشية الله . ولكن مدارسنا العصرية تدرس القرآن كجزء هامشي من مناهجها . أما سنة رسول الله و وقائع الصحابة ، التي هي بمثابة حياة دافقة ونموذج أعلى للتغير الأكمل في تاريخ البشرية ، فلا تجد مكان في مناهج مدارسنا التعليمية . أما الأحاديث والآثار فلا تدرس في مدارسنا إلا لكي تكون عنوانا للخوض في مناقشات غير متناهية حول جزئيات فقهية اخترعنها . أما "العلوم الآلية" التي تدرسها هذه المدارس فقد عفا عليها الزمن ، وهي لا تفعل شئ سوى ترسيخ الجمود في العقول وتعويذها المماحكة والمجادلة الكلامية التي لا طائل من ورائها . وكان ينبغي أن تكون أجواء المدارس الدينية معمورة بالتكبير لله .. و لكن زوال مدارسنا الدينية الحالية أدى بها إلى اتخاذ "أكبر" .. أحياء أو أموات . وكل الأنشطة داخل هذه المدارس موجدة للتكبير لهؤلاء "الأكابر" .. وكيف يمكن ، و الحالة هذه ، أن يتزود طلبتها بزاد الحرارة الأيمانية ، و أن يصاغ بها الرجال ذو الخلق الإنساني العالي ؟ ومتى لهذه المؤسسات أن تخرج الذين يعشون لله و للآخرة ، و آنى لها أن يتفجر منها الإعصار الذي تدفق من بين جدران مدارس العصور الأولى فساد العالم نورا وهداية .

ولنفهم الدور المطلوب من المدارس الدينية من هذا المثال :
لنتخيل مجموعة من الناس تتمشى في حديقة الحيوانات ، و إذا بها تفاجأ بأدارة الحديقة تعلن أن أسدا من الأسود قد أفلت من قفصه الحديدي .. وسيعني هذا الأعلان شيئ واحدا لكل زوار الحديقة و هو أن يهربوا بأقصى سرعة للنجاة من الأسد .. إن أنشطة كل الناس داخل الحديقة سوف تتركز حول الأسد الهارب . و سيتحول العلم بإفلات الأسد من قفصه والخوف منه شيئن مترادفين .. ومثل هذا الإدراك والسعي للهروب وإنقاذ الآخرين من الهلاك هو المطلوب من التعليم الديني .. فغاية التعليم الديني هي تعريف العبد بره و تربية الشعور الإنساني لأدراك خالقه و بارئه لكي يقيم الإنسان العلاقة الصحيحة بربه . و لو توقظ هذا الإدراك في عبدا من العباد فسنجد أن واقعة هروب الزوّار من حديقة الحيوانات ستقع في حياته بشدة أكبر لإنقاذ البشر من خزي الآخرة . فخالق الأسد أقوى من الأسد . ويمكننا أن نقتل الأسد أو أن نلوذ ببيت من الوقاية منه ، و لكن لا سبيل من الإفلات من قبضت رب العالمين .. وهذا هو السبب في أن جوّا عامرا بالتعليم الديني الحقيقي سيكون هو جو الخوف من الله . إن معرفة الله و الخوف منه سيصبحان شيئين مترادفين . و الحقيقة هي أن مؤسسة تعليمية خالية من جو الخوف من الله لن تكون مؤسسة تعليمية دينية ..

ويقول الله تعالى في القرآن الكريم : إن العالم هو الذي يخاف الله تعالى : {إنما يخشى الله من عباده العلماء} (28:فاطر) و

قد قال رسول الله ε : "أعلمكم بالله أشدكم له خشية"[1] . وقال بن مسعود : "ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما العلم خشية الله"[2] و قال مجاهد : "الفقيه من خاف الله"[3] ، و قال عطاء : "من خشى الله فهو عالم"[4] . أما الحسن البصري فقد قال : "العالم من خشى الرحمن بالغيب"[5] .

ولو أردنا أن نزن المدارس الدينية المعاصرة بهذا المعيار فسنجد أنها تخلو من هذه الكيفية .. والسبب في هذا هو أن أسس هذه المعاهد و المدارس لم توضع على خشية الله وتقواه ، بل هي أسست لتعليم بعض الفنون و العلوم . وهذه المؤسسات تخرج علماء هذه الفنون . وهي قد لا تكون فاشلة في أداء أهدافها التأسيسية .. أما فيما يتعلق بتدريس علم الدين الحقيقي فهى فاشلة دونما شك ..

وقد روى عن الأمام مالك قوله : "لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها".. وهذا القول ينطبق على العصر الحاضر تماما كما ينطبق على العصور السالفة . فالبعث الذي وقع في أجيال الإسلام الأولى كان أساسه القرآن الكريم وسنة رسول الله ε . ويمكن

---

[1] تفسير النسفي .
[2] جامع بيان العلم وفضله ، جـ 2 ص 25 .
[3] المصدر السابق ص 49 .
[4] المصدر السابق .
[5] تفسير بن كثير .

إحداث هذا البعث في حياة المسلمين المعاصرين باستخدام القرآن الكريم والسنة النبوية . و أكثر الوسائل العملية هو أن نأسس مدارس دينية على طراز القرون الأولى التي كان أساس مناهجها التعليمية قائما على القرآن الكريم والسنة النبوية بدلا من الفنون والعلوم التي استحدثت فيما بعد .

إن الحاجة تقتظي أن نقيم مدارس على الطراز القديم و أن ينطلق العمل لاصلاح حال الأمة المسلمة على أساس مثل هذه المدارس ، وينبغي أن تكون مناهج هذه المدارس بسيطة وغير فنية ، ويمكن أن نقسم التعليم بهذه المدارس إلى مراحل أربع :

المرحلة الأولى : تدريس اللغة العربية والقرآن الكريم .

المرحلة الثانية : تدريس الحديث والسيرة النبوية وأحوال الصحابة والتاريخ الإسلامي ـ بالغة العربية .

المرحلة الثالثة : تدريس بعض اللغات العالمية و الأديان الأخرى و الفلسفة الحديثة و معلومات علمية ضرورية .

المرحلة الرابعة : إعداد رسالة بحث باللغة العربية حول موضوع إسلامي.

إن قيام مدرسة من هذا النوع سيكون عملا جليلا من الأعمال المطلوبة في العصر الحديث .

وليس من الضروري أن نضع كتبا دراسية جديدة . فيمكننا بكل سهولة أن ننتخب من مجموعة الكتب العربية القديمة ما يلائم للوفاء بحاجات هذه المدرسة . أما تدريس اللغات و العلوم الحديثة

فليس من الضروري أن نضع كتبا لذلك ، بل يمكننا اقتناء كتب ألفها آخرون . وسنواجه مشكلة توفير الأساتذة الأكفاء .. و لكن لو ارتفعنا عن الحدود المذهبية و الإقلمية فسنعثر على الأساتذة الذين نبحث عنهم ، بشرط أن نوفر لهم الرواتب المعقولة ونعاملهم برحابة صدر وبتكريم لا ثقين .

الفهرس

رقم الإيداع : 4434 / 86 الترقيم الدولي : 6ـ69ـ1430ـ977

هجر للطباعة والنشر والتوزيع والاعلان

المكتب : 4 ش ترعة الزمر ـ المهندسين ـ جيزة

المطبعة : 2 ش عبد الفتاح الطويل ـ أرض اللواء

ت 3477751 ـ ص . ب 63 إمبابة